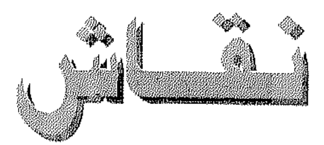
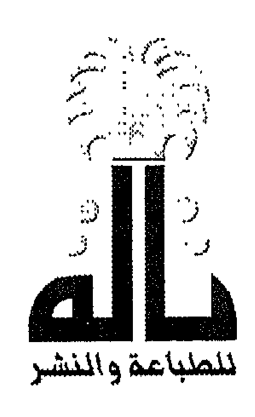
الصادق النيهوم



تالة
للطباعة والنشر

نقاش

الصادق النيهوم



نقاش

الصادق النيهوم



طرابلس

التوزيع الحصري خارج الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى



ص. ب. 113/5752 ر. ب. 2070 1103

بيروت – لبنان

Email: arabdiffusion@hotmail.com

الطبعة الثانية 2001

المحتويات

تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾.

قرآن كريم

الأنعام 122

الفصل الأول

نحن نعرف عن الآلة أنها تستطيع أن تنتج مثل الأحياء.

نعرف عنها أنها تحتاج إلى الطاقة مثلهم، وأنها تتعرض للهلاك مثلهم، لكننا نعرف أيضاً أن الآلة ليست حية وليست ميتة لأنها ـ ببساطة ـ تفتقر إلى الشرط الأساسي لوجود الحياة والموت معاً. إنها قائمة في الفراغ فقط والشرط الأساسي للحياة أن يوجد الحي في الفراغ والزمن أيضاً. إن الموت لا يحدث لأن الميت يختفي من العالم بل لأنه يفقد ارتباطه بأبعاد الزمن ويصبح قائماً في الفراغ وحده.

هذا فهم مختلف لمعنى الحياة والموت معاً.

إنه يتجاوز (شكل) الظاهرة إلى تحديد طبيعتها المميزة لها، وهو ـ فيما يبدو لي ـ أكثر تناسقاً مع روح الدين والعلم. إن صفة الحياة هي أنها تنتج وتستهلك وتموت، أما طبيعتها فهي (الوعي بوجودها) في أربعة أبعاد. إن غريزة حفظ البقاء المميزة للحياة هي بالذات النتيجة الحتمية الأولى لهذا الوعي.

والنتيجة الحتمية الثانية = التطور.

فغريزة حب البقاء إدراك لظاهرة الحياة ككل. إنها ليست موجهة لخدمة (الفرد) بل لحفظ الحياة في النوع، وليست أيضاً موجهة لخدمة نوع معين بل لحفظ الحياة ككل. لقد كان الصراع بين الأنواع هو التعبير المباشر عن هذه الحقيقة.

فالبقاء للأصلح يساوي البقاء لمن يستطيع أن يظل حياً. جملة ساذجة إلى حد السطحية لكن هذه السذاجة بالذات هي القانون الوحيد الذي يحكم عالم الغريزة. إنه بقاء لغرض البقاء. دائرة مغلقة مسخرة لخدمة ظاهرة الحياة دون قيد ولا شرط. ومشكلة هذا المنطلق الغريزي أنه يبدأ بداية مقفلة، فالحياة لها شرط أساسي حاسم جداً = إنها تنتهي عندما تصبح دائرة مقفلة. تصير حالة (موت) وليست حالة (حياة). فالدائرة المقفلة تعتمد على التكرار، والتكرار ـ مقابل النمو ـ هو صفة الموت الرئيسية. إن الشيء الميت هو الذي (يتوقف عن نموه) ويتحلل أو يظل يكرر وجوده ويدور حول نفسه[1].

والغريزة ليس في نطاقها هذا المفهوم أصلاً.

إنها تعتمد على تكرار سلوك معين لحفظ الحياة في كائن ما عن طريق طبع هذا السلوك في تركيبه البيولوجي نفسه[2] ورغم أن ذلك يحفظ ظاهرة الحياة في شكل محدد إلا أنه في الواقع يحفظها دائماً داخل نطاق الموت الممثل في التكرار والعجز عن النمو. إنه ليس حياة بل نوعاً من أنواع الموت سماته الواضحة هي:

(1) ﴿ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت﴾ سورة إبراهيم، الآية 17.

(2) مثل سلوك الهجرة عند بعض أنواع السمك والطيور.

1 ـ قدرات الفرد نسخة مكررة من قدرات جميع أفراد النوع.

2 ـ سلوك الفرد نسخة مكررة من سلوك جميع أفراد النوع.

أي أن الفرد في الواقع غير موجود إلا باعتباره (نقطة بين نقاط الخط المستقيم).

عند هذا الحد (تولد) ظاهرة الحياة، لكن هذا الميلاد يحمل في معناه صفتين واضحتين من صفات الموت: الأولى أن الحياة الغريزية تعتمد على (التكاثر) وليس على النمو، الثانية أن الحياة الغريزية تعيش على تكرار نفسها وليس على تطوير نفسها. فالفرد هنا لا يحيا لأنه (ذات مختلفة عما سواها) بل لأنه ـ بالضبط ـ مجرد فرد مشابه كلية تقريباً لجميع أفراد نوعه. إن الغريزة لا تفهم الحياة إلا باعتبارها تكراراً لنمط معين من السلوك يحدث داخل دائرة مغلقة غير قابلة للتجديد، وكلما ازدادت الدائرة انغلاقاً كلما بدت الغرائز أكثر تسلطاً ووضوحاً، وكلما اتسعت الدائرة كلما بهتت الغرائز وفقدت وضوحها حتى تترقى الحياة في سلم التغير إلى حدها الأعلى وتنفتح دائرة التكرار الغريزي. إذا انفتحت دائرة التكرار يولد على الفور شكل آخر من أشكال الحياة مقام كله على مبدأ حرية الاختيار[1].

إنني لست في حاجة إلى أن ألفت النظر إلى أن (حرية الاختيار) هي ما ندعوه في لغتنا باسم العقل. لكنني أريد أن أشير إلى أن هذا العقل ليس غريزة جديدة أضيفت إلى مجموعة الغرائز بل هو حل مختلف لإخراج ظاهرة الحياة من دائرة الغريزة المقفلة. وأن الشرط الحاسم لميلاد هذا العقل مرهون دائماً ببقاء الدائرة

(1) أريخ فروم، «الإنسان بذاته».

مفتوحة، وأن إغلاق الدائرة لا ينجم عنه انقراض الحياة بل ينجم عنه عودة الحياة إلى منطقة الغريزة.

إن العقل حياة أخرى. حياة أرقى من مرحلة الحياة الدنيا المقامة على حلول الغرائز. إنه مرحلة أعلى وأكثر فعالية لنفس الظاهرة المدعوة باسم (الحياة). وهذه المرحلة تتصف فوراً بصفتين جديدتين على الكون بأسره:

الصفة الأولى، أنها لا تعتمد على تكرار نفسها في نسلها بل تعتمد على تطوير نفسها.

الصفة الثانية، أنها ليست ظاهرة (تكاثر) بل ظاهرة (نمو)[1].

ولذا أيضاً فإن (الحي) هنا يتصف بصفتين جديدتين بنفس القدر:

الصفة الأولى، أنه ليس فرداً من أفراد النوع فحسب بل (ذاتاً) مختلفة عن بقية أفراد النوع.

الصفة الثانية، أنه يسلك سلوكاً ذاتياً مختلفاً عن سلوك أي فرد داخل النوع.

هذا الحي الذي يولد بعد أن تخرج الحياة من دائرة الغريزة المغلقة إلى دائرة العقل المفتوحة. هذا المخلوق الذي ترك وراءه الحياة الدنيا الممثلة في الغرائز وخرج إلى حياة أخرى متسمة بصفات جديدة. هذا المخلوق ندعوه في لغتنا باسم (الإنسان). إنه الظاهرة الفريدة التي لم يعرفها تاريخ الحياة من قبل. وجود لا يشبه الوجود بل يتميز عن كل ما عداه بإدراك حقيقتين أساسيتين من حقائق

(1) التكاثر عن طريق التناسل أو عن طريق انقسام الخلية امتداد أفقي، والنمو امتداد رأسي.

الحياة، **الأولى**: أن الإنسان يعرف أن الحياة مراحل ويعرف منها مرحلتين، مرحلة الوجود الغريزي المتمثل في التكرار، ومرحلة الوجود العقلي المعتمد على النمو.

الثانية: أن الإنسان يعرف أن الموت مراحل ويعرف منه مرحلتين، المرحلة الأولى الموت البيولوجي المتمثل في إيقاف التكرار. والمرحلة الثانية الموت العقلي المتمثل في إيقاف النمو[1].

إن الإنسان (يعرف) لأنه ـ بالذات ـ يستطيع أن يرى ويقارن بين هذين النقيضين. فالمعرفة ـ أو ظاهرة العقل نفسها ـ هي المعنى الوحيد لوجود المخلوق المدعو باسم (إنسان)[2]. إن الإنسان ليس هو شكله فقط بل هو أيضاً مدى إدراكه لقضية التناقض بين التكرار وبين النمو.

إن الحياة والموت، معارف إنسانية بحتة، وفيما عدا الإنسان لا تعرف الحياة أنها تحيا ولا تعرف أيضاً أنها ستموت[3].

---

(1) ﴿**إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات**﴾ سورة الإسراء، الآية 75.
﴿**قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا**﴾ سورة غافر، الآية 11.

(2) قضية المعرفة عرضت بالتفصيل في قصة خلق آدم حيث تكررت ست مرات في جميع الألفاظ الدالة على المعرفة ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون، وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون**﴾ سورة البقرة، الآية 30-33.

(3) لذا فإن معرفة الحياة والموت مسؤولية الإنسان وحده. ﴿**الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً**﴾ سورة الملك، الآية 10.

الموقع الإنساني

كل قطرة من ماء النهر تمثل النهر بأكمله

المقدمة السابقة انتهت إلى نتيجة مؤداها أن ما ندعوه في لغتنا باسم العقل، ليس في الواقع خطوة إضافية في طريق الحياة الغريزية بل خطوة مختلفة في طريق آخر. مهمة النقاش التالي أن يتابع أبعاد هذا المنطلق الجديد بإيجاد علاماته الجديدة.

والعلامة الأولى هنا أن الحياة أصبحت في الواقع مرحلتين: مرحلة قائمة على التكرار الغريزي داخل نظام مغلق يهدف إلى التكاثر، أي يهدف إلى حفظ النوع والفرد، ومرحلة قائمة على التجدد داخل نظام مفتوح يهدف إلى النمو. أي يهدف إلى تحقيق ذاتية النوع وذاتية الفرد.

الموت أيضاً أصبح مرحلتين، مرحلة ممثلة في إيقاف التكرار والعودة إلى حالة السكون ثم التحلل، ومرحلة ممثلة في إيقاف النمو العقلي[1] والعودة إلى دائرة السلوك الغريزي.

(1) إيقاف النمو مصطلح يستعمل هنا استعمالاً سطحياً لغرض تقريب المعنى فالواقع أن (النمو) لا يمكن إيقافه بأي شكل من الأشكال. إن الجسد الحي ينمو في اتجاه القوة أو ينمو في اتجاه الضعف أي أنه لا يتوقف عن النمو بل يغير اتجاهه فقط.

لقد ترتب على هذه الحقيقة نتيجة حاسمة جداً، فقد أصبح التكرار ـ وهو نوع من الحياة ـ ظاهرة واقعة في نطاق الموت. أصبح التكرار بالنسبة للنمو مثل السكون التام بالنسبة للتكرار، وصار بوسع أحد الكائنات الحية أن يموت وهو حي. صار بوسعه أن يموت في الحياة ويحس بأنه ميت[1].

ذلك الكائن ندعوه في لغتنا باسم الإنسان. إنه ليس حيواناً مختلفاً عن سواه فيما يخص اعتماده على غرائزه، فنبض قلبه وتنفسه وجهازه الهضمي وكل شيء في جسده يعمل بطريقة غريزية بحتة، لكنه أيضاً ليس حيواناً عادياً مثل سواه إنه وحده ـ ووحده فقط بين جميع الكائنات ـ الذي لا يملك نظاماً غريزياً كافياً لحفظ حياته.

فالعقل ينبثق في مرحلة يمكن وصفها بأنها نقطة تبهت فيها الغرائز وتضمحل إلى آخر مدى، والإنسان الذي يمتلك العقل ليس بوسعه أن يمتلكه دون أن يدفع هذا الثمن بالذات. إنه يولد عاجزاً تقريباً حتى إنه يحتاج إلى شهور طويلة قبل أن يزحف على ركبتيه[2] ويحتاج إلى سنوات قبل أن يتعلم كيف يعتمد على نفسه في مجتمعه المعقد، ويظل طوال هذا الوقت في حاجة ملحة لرعاية الآخرين. ليس فقط في طعامه بل أيضاً فيما يخص نمط الحياة نفسها داخل المجتمع، وهو يعيش بعد ذلك بقية حياته في اختيار السلوك المناسب لكل موقف على

---

(1) ﴿**لا يقضي عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها**﴾ سورة فاطر، الآية 36.

(2) طفولة الإنسان الهائلة الطول جعلت أمر الأسرة ضرورة لوجود الجنس البشري نفسه. إن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي ارتبط بقاؤه ببقاء نظام الأسرة.

حدة لأنه لا يملك سلوكاً غريزياً مطبوعاً في تركيبه[1].

إن هذه الحقائق ليست صفات للإنسان بل هي (شروط) لوجوده نفسه. ذلك يعني أن مصطلح (إنسان) لا يشير إلى شكل الكائن الحي بل يشير إلى (طبيعة) خاصة تضمحل فيها الغرائز وينبثق عندها سلوك اختياري خاص بالكائن نفسه فإذا لم يتوفر هذا الشرط فإن الكائن بغض النظر عن شكله مجرد حيوان آخر.

ومن الواضح هنا أن القضية لا تخص نوع السلوك المطلوب بل تخص مصدره وحده. إذا صدر السلوك بالاختيار فهو سلوك إنساني وإذا صدر بالتكرار فهو ليس سلوكاً إنسانياً بغض النظر عن بقية القيم. أي أن التكرار هنا ليس مضراً أو نافعاً، إنه فقط يقع في منطقة مختلفة لا علاقة لها بمعنى (إنسان) كما أن الاختيار ليس مضراً أو نافعاً لكنه الحل الوحيد لإتاحة فرصة الخروج من منطقة التكرار سواء اختار الإنسان أن يكرر سلوكه أو أن يخلق نمطاً جديداً[2].

فالقضية ـ إلى هذا الحد ـ ليست قضية المضر والنافع بل قضية طبيعة إنسانية وطبيعة غير إنسانية. إن الفرق بين التكرار وبين النمو ليس فرقاً بين الخير وبين الشر بل بين الإنسان وبين الحيوان. فإذا أتيح لهذه الحقيقة نصيب كاف من الوضوح لدينا فإننا سنرى أن مشكلتنا لا تكمن في إيجاد بناء خاص لمجتمعنا بل هي في اختيار أحد الاتجاهين التاليين أمامه: ـ

(1) الثقافة تؤدي أحياناً مهمة السلوك الغريزي. إنها في حد ذاتها محاولة لإيجاد أنماط السلوك المناسبة أمام كل فرد في الجماعة لكن هذا السلوك يظل بالطبع أقل وضوحاً وأصالة وأهمية من أنماط السلوك الغريزي.

(2) بالنسبة للدين أيضاً ليس ثمة معنى للحسنة أو السيئة إلا داخل نطاق حرية الاختيار.

1 ـ إذا اخترنا أن نصنع حيواناً اجتماعياً مفيداً، فإن حصيلة هذا العمل قد تكون مجتمعاً مفيداً لكنها بالتأكيد لن تعطينا مجتمعاً إنسانياً بل مجتمعاً حيوانياً قائماً ـ في جذوره ـ على مشكلة الطعام.

2 ـ إذا اخترنا أن نخلق إنساناً بكل سمات حريته في الاختيار فنحن في الواقع نجازف ببقاء المجتمع كله ما دمنا لا نملك مقياساً للخير أو للشر سوى حرية الاختيار الذاتي.

إن الأمر يبدو لأول وهلة بمثابة اختيار مغلق لكنه في واقع الأمر ليس مغلقاً على الإطلاق. فالحل الأول مستحيل والحل الثاني مقام على مقدمة مغلوطة. إننا نستطيع أن نتبين هذه الحقيقة بوضوح إذا أتيحت لنا فرصة النظر إلى طبيعة الإنسان عن كثب. فما هي الخطوط العامة لهذه الطبيعة؟[1].

حيوان لا يعول على غرائزه

الصفة الأولى لهذه الطبيعة أن الإنسان حيوان لا يعول على حفظ حياته بتكرار سلوك أسلافه بل بتنمية قدراته على اتخاذ القرار المطلوب طبقاً للظروف المتاحة. إنه لا يغير تركيبه البيولوجي بل يغير تركيبه الثقافي وحده إذا تغيرت الظروف من حوله.

الصفة الثانية أن اعتماد الإنسان على قراراته يجعله دائماً في حاجة ملحة إلى مقياس ما يقيس به الخطأ والصواب. إن الطيور لا تتخذ قراراً بالهجرة في موسم الشتاء بل تهاجر استجابة لغريزة

(1) طبيعة الإنسان كلمة تستعمل هنا بمعنى (جوهر الإنسان الذي يميز وجوده المتفرد عن سواه باعتباره فرداً من الجنس البشري وليس باعتباره شخصاً معيناً بذاته).

قاهرة لا مفر من الإذعان لها بغض النظر عن نتائجها النهائية، أما الإنسان فإنه لا يملك غريزة متسلطة عليه إلى هذا الحد سوى الغرائز التي تحرك جسده. ما يفعله بهذا الجسد متروك كله له. إنه لا يهاجر استجابة لغريزة بل بناء على قرار، والقرار نفسه لا يأتي استجابة لغريزة بل نتيجة الوعي والدراسة طبقاً لمقياس محدد، والمقياس نفسه لا يأتي استجابة لغريزة بل استجابة لفكرة الخير.

الصفة الثالثة: أن فكرة الخير بالنسبة للإنسان ليست معادلة لفكرة البقاء عند الحيوان. فالحيوان الذي يعيش داخل دائرة الغريزة المغلقة يملك مقياساً غريزياً للخير والشر. إن الخير هو بقاؤه حياً والشر هو تعرضه للهلاك. ذلك مقياس يحمله في تركيبه نفسه ولا يملك فرصة مخالفته أو تعديله. أما الإنسان الذي يعيش داخل دائرة الغريزة المقفلة ويعيش أيضاً داخل منطقة العقل المفتوحة فإنه في الواقع يملك مقياسين:

المقياس الأول يحمله في تركيبه ـ مثل أي حيوان آخر ـ ولا يملك فرصة تعديله أو مخالفته ويتخذ على ضوئه جميع قراراته بثقة. إنه يحكم على المرض بأنه شر ويحكم على الصحة بأنها خير لأنه يحس ذلك في نفسه مباشرة دون واسطة ثقافية.

المقياس الثاني لا يحمله الإنسان في تركيبه بل في عقله. إنه المقياس الذي يحتاج إليه لكي يكون إنساناً ويؤدي وظيفته الحقيقية في النمو والنفاذ من دائرة التكرار الغريزي. لكن مشكلة الإنسان أنه لا يحس نتائج قراراته العقلية كما يحس الصحة والمرض. إن الخير هنا ليس هو الصحة بل النمو والشر أيضاً ليس هو المرض بل

الجمود، ونتائج القرار نفسه مدفونة ـ دائماً ـ وراء جدار المستقبل الذي لا يمكن اختراقه بدون وسائل المعرفة[1].

من هذا الموقع يكتشف الإنسان أنه وحيد[2].

وأنه وحده دون جميع الكائنات الحية يستطيع أن يتخذ قراراً ضاراً دون أن يدري، وأن ذلك يعني بالطبع أن مصيره معلق بين يديه. هنا ـ في لحظة هذه العزلة الهائلة ـ يكتشف الإنسان طريقين:

مشكلة العزلة

الطريق الأول يقوده تحت وطأة الرعب إلى أن يفقد ثقته بنفسه وبقدراته العقلية ويبحث حوله عن أي مقياس لقراراته من العالم الذي يلمسه بجسده. أحياناً يجد طوطماً يقيس به الخير والشر. وأحياناً يجد فلسفة ترسم له منهج الخير والشر. ليس ثمة فرق بين المقاييس التي يجدها الإنسان حوله. إنها جميعاً تحقق له غايتين: الغاية الأولى أنها تؤدي للإنسان مهمة رحم الأم وتعيده إلى حالة (الأمان) التي يجدها الجنين عن طريق إعفائه من مهمة اتخاذ قراراته معتمداً على قدراته وحدها. إنه يستطيع أن (يثق في قراراته الآن ويوقن بأنها ستعود عليه بالخير لأنه يتخذها بقدراته العقلية بل بقدرات الصنم السحرية)[3].

---

(1) المعرفة متطورة والمصطلح يستعمل هنا لكي يضم وسائل كشف المستقبل عن طريق الفكر سواء الفكر الخرافي المتمثل في التنجيم والسحر أو الفكر العلمي المتمثل في الاستقراء.

(2) قضية الوحدة أو ـ بكلمة أخرى ـ مشكلة العزلة هي القضية الرئيسية التي يعمل علم النفس المعاصر على إيجاد أبعادها في جميع مدارسه. إنها تعالج الآن تحت عناوين مختلفة منها (**الغربة** عند بول تيليخ، **اللاانتماء** عند كولن ويلسون، **الوجودية** عند بول سارتر، **التغرب** عند أريخ فروم).

(3) فروم. «**الإنسان لذاته**».

الغاية الثانية أنها جميعاً تصنع إنساناً يقضي حياته داخل رحم أمه. أبداً لا تتاح له فرصة الخروج من الظلمة. أبداً لا تتاح له فرصة الحياة على مستوى النمو. إنه يتحجر مثل أصنامه ويعود إلى دائرة الغريزة المغلقة بعقله وجسده معاً. جسده يحيا على تكرار نمط معين من السلوك الذي لا حيلة له فيه. وعقله يحيا على تكرار نمط معين من السلوك الذي لا حيلة له فيه. إن الإنسان على هذا الطريق حيوان عادي أو بكلمة القرآن (إنسان ميت)[1].

قضية الوحدة:

الطريق الثاني يقوده ـ ليس تحت وطأة الرعب ـ بل في أضواء عقله الساطعة إلى أن ينظر حوله بإمعان ويرى الحقيقة أمامه رأي العين. فليس ثمة مخلوق في العالم أولى بالثقة في نفسه من الإنسان. ليس ثمة مخلوق آخر ينافسه ـ أو حتى يدانيه ـ في نظام عقله المبدع وقدرته العظيمة على النمو.

إن الإنسان من هذا المنطلق لا يركع أمام حجر. ولا يبحث عن كاهن لكي يكتب له تعويذة. إنه ينطلق لبناء عالمه مؤمناً بقدراته. مؤمناً بأن الحياة ليست عبثاً لا طائل وراءه بل نمواً مطرداً لتحقيق الخير.

إذاك تحدث المعجزة ويولد الحي من الميت[2]. فحاجة الإنسان إلى المقياس غريزة في عقله تعادل غريزة حفظ البقاء في جسده[3].

---

(1) كلمة الموت ترد في القرآن الكريم بمثابة بديل لكلمة الكفر طبقاً للمقدمة القائلة بأن إيقاف النمو هو مرحلة الموت العقلي وأن إيقاف التكرار هو مرحلة الموت البيولوجي.

(2) ﴿**أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس**﴾ سورة الأنعام، الآية 122.

(3) فروم، «**الإنسان لذاته**».

إنه لا يستطيع أن يواجه عزلته إلاّ بالجنون المطلق ولا يستطيع أن ينفذ منها إلا عبر هذا الجسر لذا فليس ثمة إنسان يتخذ قراراته العقلية في الفراغ. إنه لا بد أن يتخذها طبقاً لمقياس ما، فإذا كان هذا المقياس غير منبعث من فطرته الإنسانية المتميزة بالاختيار فإنه لا بد أن يقوده إلى (الجمود). هذه النتيجة مؤكدة طبقاً لرأي العلم المعاصر[1].

النتيجة

إن الإنسان ليس مخيراً فيما يخص فطرته وليس بوسعه أن يفعل شيئاً سوى أن يستجيب لها أو يصبح حيواناً شقياً يحمل جسده عبئاً ويحس بثقل وطأته، إن الأمر هنا ليس اختياراً بين الخير وبين الشر بل بين الحياة وبين الموت أو بكلمة القرآن اختيار بين الجنة وبين النار.

إن القضية يمكن أن تصاغ بمقدمات ونتائج محددة على النحو التالي:

1 ـ ما دام الإنسان لا يوجد بتكرار سلوكه غريزياً بل بتحقيق مستوى (النمو) فإنه بالتالي لا يوجد بدون حريته في الاختيار.

2 ـ ما دامت حرية الاختيار ليست هي تكرار السلوك غريزياً لذا فإنها عالم جديد معزول عن ظاهرة الحياة البيولوجية بأسرها.

---

(1) فروم، «**قلب الإنسان**». ويلاحظ أن مشكلة الغربة عن العالم والعودة إليه مشكلة نفسية ذات مكانة خاصة في الفكر الإنساني بأسره. إن قوله تعالى ﴿**وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون**﴾ هو التلخيص الحقيقي لموقف الإنسان المسلم من قضية الغربة بالذات.

3 ـ العزلة الناجمة عن تفرد حرية الاختيار عن بقية ظواهر الحياة يعكسها الإنسان بمثابة وعي عميق بالوحدة في العالم. هذا الوعي هو نواة وجوده وعقله أي (ذاته).

4 ـ حول نواة وجوده ينمو للإنسان عقله. إذا كانت النواة وعياً (بالنمو) فإن الإنسان ينمو. وإذا كانت النواة وعياً بالعزلة الناجمة عن حرية النمو فإن الإنسان يغمض عقله كما يغمض عينيه لكي يهرب من عذاب هذه العزلة. إنه إذاك يفقد ذاته ويصبح جزءاً من الطبيعة الجامدة.

5 ـ هروب الإنسان من ذاته هو القاعدة السائدة حتى الآن فليس ثمة نهاية لأجزاء الطبيعة التي يستطيع الإنسان أن يهرب إليها من وحدته. لقد دفن نفسه في كل شيء نعرفه أو لا نعرفه من الطواطم والأصنام إلى النجوم وعبادة السلف، كل شيء وجده الإنسان أمامه كان يؤدي له إحدى غايتين، يجعله يشعر بتفوقه وقدراته ويكتشف أبعاده العقلية أو يجعله يشعر بعزلته ويرغمه أن يغمض عقله تحت وطأة الرعب. وقد اختار الإنسان الحل الذي يعتقد أنه الأسهل ووجده دائماً الحل المستحيل لكنه لا يستطيع أن يكف عن الهرب تحت وطأة رعب العزلة. إننا نحتاج أن نتذكر الشراسة اللامتناهية التي أبداها عبدة الأصنام أمام الأنبياء لكي نتصور مدى الرعب الذي يستشعره الإنسان بدون أصنامه. إن حياته كلها معتمدة عليها.

ومع ذلك ليس ثمة فرصة للفرار.

إن الإنسان لا يستطيع أن يفقد (ذاته) دون أن يموت ويصبح

تكراراً مغلقاً. هذا يعني وجوده أصلاً. إنه لا بد أن (يبقى حياً في الطبيعة الجامدة) أو يصبح جزءاً جامداً منها. الاختيار هنا ليس اختياراً بين الحياة وبين الموت بل بين العقل وبين اللاعقل أو بكلمة القرآن (بين الحق وبين الباطل).

إنني أرغب في إيجاز الحقائق السابقة في مقدمات أكثر تحديداً.

المقدمة الأولى:

ـ أن الإنسان يعي ذاته لأنه يعي تفرده عن العالم من حوله.

المقدمة الثانية:

ـ إن هذا الوعي هو في الواقع وجود في العالم لكن الإنسان يحسه بمثابة (عزلة عن العالم).

المقدمة الثالثة:

ـ ما دام الإنسان لا يستطيع أن يعيش في عزلته فإنه لا بد أن يعود لتحقيق (وحدته) مع العالم. إنه لا بد أن يصبح جزءاً من الكل.

المقدمة الرابعة:

ـ إن الوحدة مع العالم يمكن تحقيقها في اتجاهين:

الاتجاه الأول يعود بالإنسان إلى رحم أمه. يعيده إلى مرحلة (اللاوعي) في طفولته ويجعله يعيش (حياته الدنيا) بعقل الطفل. إنه هنا يفقد ذاته كما يفقد ثقله ووزنه في رحم أمه وتصبح جميع علاقاته موجهة للدفاع عن (عالمه) باعتباره هو (ذاته). لهذا السبب يموت عابد الصنم دفاعاً عن حجر ميت.

إنسان غير مستقل بذاته

الإنسان في هذا الاتجاه أحد شيئين أما جنين موجود في العالم

وغير موجود فيه، وأما (أم) تحمل الجنين وتغذيه من جسدها. أما (عقل) متعطل يستمد حياته من غيره، وأما (عقل) مشغول ـ وليس نشطاً ـ بإعداد الغذاء له. الإنسان هنا ليس فيه نفحة من روح الله، إنه كما يدعوه علم النفس المعاصر (ماسوشست) أو (ساديست) عابد وصنم أو طفل وأمه أو بكلمة أخرى اثنان من الأشياء الفانية[1].

إنسان يحقق استقلال بذاته

الاتجاه الثاني يخرج بالإنسان من رحم أمه. يقوده إلى النمو حتى يدرك ذاته. يصبح ذاتاً منفصلة عن الأم ويعرف أنه منفصل عنها حقاً لكنه لا يسارع بالعودة مذعوراً إلى رحمها بل يرى ارتباطه بها في ظاهرة (الخير والعطاء والسلام). إنهما معاً موجودان داخل هذه الظاهرة لكن كل واحد منهما موجوداً فيها بذاته وليس بداخل الآخر. كل واحد منهما حي. كل واحد منهما نشط بالحياة وليس مشغولاً بها. هنا يولد الإنسان والأسرة والمجتمع ولادة النمو.

أي اتجاه يختار الإنسان؟ الصنم أم اللّه؟ ذاته الحية أم طبيعته الجامدة[2] روحه أم جسده؟ هذا هو موضع النقطة الحاسمة، إن الأمر لا يخص المنطق بل يخص الاتجاه نفسه. المنطق يأتي في مرحلة تالية بعد أن يتحدد الاتجاه. هل يؤمن الإنسان بذاته النامية أو

(1) العودة إلى الرحم مصطلح معاصر يقابله في القرآن مصطلح (الجمود داخل ثقافة الأب). يقول تعالى ﴿**وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون**﴾ سورة الزخرف، الآية 23.

(2) (الطبيعة الجامدة) ليست هي الطبيعة غير الحية بل هي الطبيعة غير النامية خارج نطاق التكرار الغريزي.

لا يؤمن؟ هل يؤمن بالخير أو لا يؤمن؟ هل يريد أن يولد للنور أم يريد أن يبقى في الظلام؟ الإجابة يملكها الإنسان ذاته. ليس بوسع ذات أخرى أن تطل هناك لكي ترى الإجابة من الخارج، إن ما يفعله الإنسان وما يقوله ليس دليلاً على طبيعة اتجاهه الأصلي بل دليلاً على ما ليس بوسعه أن يفعله أو يقوله. لذا فإن الفعل ليس دليل النية وكل شيء يصدر من الإنسان يمكن تفسيره دينياً في إطار الإيمان أو إطار الكفر[1]. النتائج النهائية وحدها هي الحكم لكن النتائج النهائية لا تقاس بمقدار النفع المادي أو الخسارة المادية إلا لأنها في الواقع تقاس بمقدار (النمو) أو (الجمود).

الإيمان هو النمو بدافع الثقة في اللّه.

والكفر هو الجمود بدافع الثقة في صنم. والفرق بين هذين الموقفين لا تنقله الكلمات والأشكال. إن الفضائل في الواقع هي نفسها الرذائل في الاتجاه المضاد. الفضيلة والرذيلة هما اختيار النمو واختيار الجمود. فالذي لا يختار الحق يختار الباطل والذي لا يختار التواضع يختار الذل والذي لا يختار الكبرياء يختار الغرور وكذلك كل فضيلة إنسانية أخرى.

إن الإنسان إذا لم يؤمن باللّه آمن بصنم.

إذا لم يؤمن بالخير والعطاء في طبيعة أمه آمن بالشر والأخذ من جسد أمه.

إذا لم يحي في العالم مات في العالم.

إن الحياة ـ مثل الماء ـ ليس لها لون ولا طعم ولا رائحة. لكن

(1) يتفرد القرآن ـ دون جميع الكتب المقدسة ـ بالإشارة إلى هذه القضية الهامة بنص كامل ورد في سورة الكهف.

الإنسان يحس بوجودها في كل بقعة من جسده. إنها حقيقة ماثلة في عقله. وإذا كان الماء ليس هو أناؤه فإن الإنسان الذي يعبد الإناء يعبد في الواقع جسده المصنوع من الماء. إنه لا يرى سوى الجانب المادي من الحياة أو بكلمة أخرى (مخلوق من تراب) يقصر الحياة على التراب وينكر وجودها الحقيقي الذي يحسه بعقله كما يحس الوجود بجسده، إنه ـ كما يراه القرآن ـ كافر بالله والبعث[1].

قضية الكفر

الكفر هنا كفر بالنمو، إنه ليس عملاً موجهاً ضد الله بل ضد الإنسان وضد حياته ووجوده وسعادته بالخير والسلام. الكفر ليس إنكار وجود الكنيسة بل إنكار وجود الإنسان نفسه وتميزه بالوعي والنمو. الكفر ليس خروجاً عن سلطة الكنيسة بل خروجاً عن سبيل الحق. إن الإنسان الذي تقوده عزلته تحت وطأة الرعب والخوف لا يجد الله بل يجد صنماً ويصنع له كنيسة ويضع إخوته في خدمته ويلبسهم بدلة الخدمة ويدفن ذاته في ركام الفلسفة.

إنه لا يطيع الله بل يخضع للكنيسة ولا يعبد الله بل يبيع نفسه للكاهن. ولا يخدم النمو المميز للحياة بل يخدم الجمود المميز لشكل السلطة الدينية. إن الإنسان اليهودي هو التجسيد الأكثر وضوحاً لهذه الظاهرة المحزنة في تاريخ الإنسان لكنه التجسيد

(1) الكفر والإيمان ليسا سوى حدين نهائيين تقع بينهما منطقة متسعة من أنواع السلوك والاختيارات. إن هذه الحقيقة حاسمة جداً في إقرار مبدأ الديناميكية بالنسبة لهذين الحدين، والقرآن يشير إلى قضية الميزان، أو تقدير المسافة بين الإنسان من جهة وبين أحد هذين الحدين من جهة.

إن مصطلحي الكفر والإيمان لا يستعملان في القرآن باعتبارهما حدّين جامدين بل باعتبارهما حدّين لنشاط ديناميكي متواصل النمو.

الأكثر وضوحاً فقط فتاريخ الإنسان ما يزال حافلاً بالأصنام[1] وما يزال (رب العالمين) يدفعه قسراً عبر لحظة ولادة صعبة لكي يرفع رأسه إليه.

إن الإسلام هو الموقف (الوحيد) للإنسان الذي يستطيع أن يرى منه حقيقة (اتجاهه) منذ أول لحظة. إن القرآن ليبدو حقاً بمثابة نور أضاء العقل الإنساني فجأة وتركه يرى ما لم يكن بوسعه أن يراه. كل ما يحتاجه المرءِ لكي يلمس هذه الحقيقة بنفسه هو أن لا يقرأ القرآن بعينيه فقط.

قضية الخلق في القرآن

فقصة الخلق هنا لا تبدأ من الفراغ كما حدث في كتاب العهد القديم. إنها تبدأ من مشكلة الثقة في الإنسان وقدراته. ذلك يعني أنها تبدأ من النواة الحقيقية لمنطلق العقل الإنساني نفسه. هل يستحق الإنسان الثقة؟ هل يستحق أن يخلق؟ النص القرآني يقول ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون**﴾... وهنا يبدو الموقف الإنساني بأسره واضحاً ومفصلاً. فالإنسان مخلوق لكي ينمو. إنه مخلوق لكي (يخلف) اللّه في الأرض بأداء مهمة النمو والمعرفة والخروج من منطقة التكرار والجمود. فهذا هو اللّه الذي يحمل الإنسان نفحة منه.

المعارضة

لكن النمو يعني الخروج من منطقة الغريزة، والملائكة الذين

(1) الصنم يستعمل هنا بمثابة مصطلح خاص. إنه لا يعني حجراً معبوداً فقط بل يعني أي غطاء يحجب الإنسان عن رؤية وجه الحق، وكلمة الغطاء تستمد معناها من كلمة (الكفر) التي تعني (غطى وحجب).

يمثلون التكرار الدائم بالتسبيح والتقديس[1] لا يثقون بمخلوق مهمته أن يخرج عن نمط التكرار إلى نمط الحرية إن عدم ثقتهم تمثلت في كلماتهم نفسها فهم لم يروا الخير والحياة في الإنسان بل رأوا فيه الشر والموت فقط.

إجابة القرآن ﴿**إني أعلم ما لا تعلمون**﴾ رد على عدم الثقة بالإنسان. إعلان واضح بأن المخلوق الجديد يظفر بثقة خالقه. إن النمو والخروج من منطقة الغريزة خير للحياة بمعرفة من اللّه نفسه.

الإنسان الذي يعرف

هذه الحقيقة ترد فوراً في الآية التالية ﴿**وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم**﴾ فالتكرار لا يعرف ماذا يحدث خارج منطقة التكرار لكن النمو يعرف. إن آدم يعرف الأسماء وخالقه يقدمه واثقاً بقدراته ﴿**قال يا آدم انبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون**﴾ والكتم هو ما كان كامناً في الغريزة كما يكمن النبات نفسه في البذرة، إن العالم بأسره بذرة لنبتة الإنسان القادر على النمو.

لكن النمو يعني الخروج من دائرة التكرار. والسيطرة على الغريزة وتحريكها في خدمة الحياة. ذلك الأمر الذي يتطلب خضوع الغريزة للعقل، والإنسان ينال هذا الحق في السيطرة ما دام يهدف

(1) التسبيح والتقديس سلوك تكراري وهو أسمى أنواع التكرار لكن الإنسان يقع في منطقة مختلفة هي منطقة (النمو). والملاحظ أن كتاب العهد القديم يخلو من ذكر معارضة الملائكة ويورد القصة خالية من تفصيلات الحوار.

إلى وضع النمو في خدمة الحياة لكنه يفقده فوراً بمجرد أن ينسى هدفه الأصلي وينطلق لوضع الحياة في خدمة الحياة. لأن ذلك استهلاك في خدمة الاستهلاك. نار طبيعتها أن تستهلك وليس أن تنمو. ذلك إبليس الناري الذي رفض أن يسجد للطين والنماء وسوف يظل يرفض أن يسجد له إلى الأبد. إن طبيعة الإنسان أن ينمو فإذا نسي هذه الطبيعة فإنه يصبح ناراً مستهلكة.

هذا المعنى محدد بالتفصيل في سورة الأعراف ﴿**قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين**﴾ وحجة إبليس فارغة لأن الخير لديه مقياسه الشكل والإجابة إشارة واضحة إلى هذه النقطة ﴿**قال فاهبط منها**﴾[1] أي لن تبقى في نطاق الحياة بل في نطاق الموت ﴿**فما يكون لك أن تتكبر فيها**﴾ أي ليس بوسعك أن تحيا ما دام الشكل مقياس الخير بالنسبة لك وليس النمو ﴿**فاخرج إنك من الصاغرين**﴾ فالنمو صفته الكبرياء والجمود في الشكل صفته الذل.

بعد ذلك يبدأ الصراع. ليس بين الله وبين الشيطان بل بين الإنسان وبين الشيطان. الصراع بين الطين المعد للنماء وبين النار المعدة لاستهلاك الماء. الصراع الحقيقي الذي يحسه المرء في جسده وروحه في كل لحظة من لحظات حياته إنه كلما هرب من طبيعته في النمو لسعته النار[2].

---

(1) الطرد هنا ليس طرداً من ملكوت الله بل من ملكوت الخير والنمو. إن إبليس الذي يمثل عبادة الشكل والتكرار لا يستطيع ـ بطبيعته ـ أن يحقق الخير والنمو.

(2) الغربة بالنسبة لجميع الدراسات المعاصرة هي نتيجة الهروب من الفطرة الإنسانية. إن كارل ماركس ـ رغم كل التشويه الذي لحق بأفكاره ـ يبقى في النهاية (باحث عن الاشتراكية التي تستطيع أن تدافع عن الإنسان ضد غربته وتعيده إلى فطرته الأصيلة). انظر فروم، **الإنسان عند ماركس**، صفحة 46.

هذا الصراع لا يبدو (أبدياً) في القرآن بمعنى أن الإنسان قد فقد فرصة الخلاص إلى الأبد[1] بل يبدو بمثابة خط موازٍ لخط النمو. إن الإنسان موجود في مكان ما بين الخطين في كل الأوقات. وقد يظل بينهما طوال حياته لكنه أبداً لن (يحيا) كذات حقيقية إلا إذا اختار جانب النمو والخير فإذا وقع هذا الاختيار حقاً فإن الصراع ينتهي بمولد الإنسان. إنه ليس انتصاراً على (خصم) اسمه الشيطان بل ولادة من الموت أو بكلمة أخرى الخروج من الحياة الدنيا في رحم الأم وحمل أمانة الحياة.

الفطرة استجابة

إذا حقق الإنسان هذا الخروج مؤمناً بالله وبقدراته وجوهره النبيل فإن الشيطان يفقد سلطانه عليه إلى الأبد ويفقد الموت طبيعته المخيفة ويصير إيماناً عميقاً بالخلود والحياة وإذا لم يحقق الإنسان هذا الخروج فإنه يلتصق بالتراب والأرض ويصبح الموت مصدر رعبه الدائم الذي ليس ثمة أمل وراءه في الخلود. إن الجنين في رحم أمه لا يعرف حياة سوى حياته في الظلام لكنه يخرج استجابة لفطرته وحدها فقط واستجابته لفطرته هي الإيمان الذي يمنحه الحياة والحرية خارج الرحم.

الخطيئة هي الهروب من الفطرة

إنكار الإنسان لفطرته هو خطيئة آدم في القرآن.

إنه لم يثق بنفسه كما وثق الله به، لم يستجب لطبيعته الإنسانية في النمو بل حاول تغييرها بتجاهل الجمود. لقد كان يريد

---

(1) بالنسبة لكتاب العهد القديم الخطيئة أبدية والجنس الإنساني بأسره يدفع ثمن هذه الخطيئة ودم المسيح هو الثمن الذي دفعه ابن الإنسان. إن القرآن يختلف مع كتاب العهد القديم في هذه النقطة اختلافاً جذرياً وحاسماً.

أن يبقى حياً خالداً وليس حياً خيّراً. كان قد نسي أن النمو هو فطرة الخلود. وأن الحياة هي جنة هذه الفطرة. لقد كان آدم يشتهي أن يعود إلى (رحم الطبيعة) الجامدة هرباً من وعيه بذاته كمخلوق غير جامد. كان يشتهي أن يتجدد بالتكرار وليس بالحرية والنمو هرباً من وعيه بعزلته واختلافه عن بقية الكائنات. لكن اللّه خلق الإنسان لهذه المهمة بالذات خلقه لكي لا يشعر بالعزلة ولا يهرب من طبيعته المتفردة بل يحمل أمانة الوعي ويشعر بالانتماء إلى العالم الذي يعمره اللّه بنوره. الانتماء عن طريق إيمان الإنسان بقدراته وليس الانتماء عن طريق كفر الإنسان بقدراته. إن النص القرآني في سورة **طه** يجمع هذه الحقائق كلها. ﴿**فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى. إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى**﴾.

إن جنة الإنسان هي فطرته، وعيه بالحياة والموت، وإحساسه بالوحدة بين بقية الكائنات وقهره لهذه الوحدة بالاتحاد مع العالم في تحقيق إرادة الله. لكن هذه الفطرة هي أيضاً جحيم الإنسان. وعيه بالحياة والموت وإحساسه بالوحدة بين بقية الكائنات وقهره لهذه الوحدة بالالتحام ـ وليس بالاتحاد ـ في الأشياء.

إن الأمر مرهون كله باختيار الاتجاه.

الإيمان بالفطرة يخلق إنساناً لا يقيس حياته بإنتاج الأطفال[1]

(1) هنا يتضح معنى (مجتمع التكاثر)، أي المجتمع القائم على مبدأ التناسل وليس التجدد، والذي أشار إليه القرآن في سورة كاملة إشارة واضحة المعنى. ﴿**ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر. كلا سوف تعلمون، ثم كلا سوف تعلمون، كلا لو تعلمون علم اليقين، لترون الجحيم، ثم لترونها عين اليقين، ثم لتسألن يومئذٍ عن النعيم**﴾. والواضح أن المقارنة بين مجتمع التكاثر وبين مجتمع النمو هي في الواقع مقارنة بين الجحيم وبين النعيم.

والخبز فقط بل بالنمو كظاهرة عامة غير منتهية، والكفر بالفطرة يصنع إنساناً يقيس حياته بما ينجبه ويأكله ويلبسه ويشربه. لهذا السبب كانت الإشارة في النص القرآني إلى الزوجة والجوع والعري والظمأ. إن الحضارة الإنسانية قامت على محاولة الإنسان الهرب من فطرته لكن ذلك لا يعني في الواقع أنه لو لم يهرب الإنسان من فطرته لما قامت الحضارة. إنه يعني فقط أن الإنسان لو بنى حضارته على الإيمان بنفسه لما انتهى إلى صناعة القنبلة الذرية. لكن الخطيئة حدثت وتحدث في كل لحظة ﴿**فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى. فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى**﴾.

الخطيئة مستمرة

اختار الإنسان أن يكفر بطبيعته ويحاول تغييرها بالتزام التكرار والجمود بدل النمو والثقة ومد يده وأكل من الشجرة المحرمة لقد أصبح (خالداً) إن الإشارة إلى الأعضاء الجنسية إشارة إلى نوع هذا الخلود المزيف[1] فالإنسان في الواقع لا يخلد في نسله. إنه ينجب حيواناً آخر له نفس الغرائز. أي يكرر الدائرة المغلقة مثل بقية الحيوانات، ومشكلة الإنسان أنه لا يوجد في دائرة مغلقة.

الخلود الصعب

الخلود بالتناسل عبء على الإنسان وليس خدمة له.

عبء لا يستطيع أن يطبقه لأنه أصلاً غير معد له. إن الحيوان لا يشقى في تربية أطفاله فالغريزة لا تحتاج إلى تربية ولكن الإنسان يحتاج إلى كل شيء. إنه ـ مادام قد اختار طبيعة الحيوان ـ لا بد أن

(1) هذا أيضاً هو التفسير الذي يتبناه فروم لحادثة الخلق في كتاب العهد القديم.

يفقد طبيعته ويصبح حيواناً وما دامت إمكانياته الغريزية لا تكفي للمحافظة على بقائه. فإنه لا بد أن يسخر إمكانياته العقلية لتغطية هذا النقص عن طريق (التعاون الجماعي). الامكانيات العقلية هي التي أشار إليها القرآن (بورق الجنة). فالجنة هي فطرة الإنسان كاملة. طبيعته المتميزة بالنمو لكن تسخير هذه الفطرة في خدمة (الخلود البيولوجي بالتكاثر الغريزي وحده) مجرد أوراق مقطوعة عن جذورها النامية ومعرضة دائماً للذبول.

المجتمع الذي لا يقوم على (إنسان) مؤمن بفطرته في النمو والخير، يقوم على إنسان مؤمن بفطرته في تكرار نفسه غريزياً مثل أي حيوان ويقتصر على معالجة نقصه البيولوجي في مغالبة جوعه وعريه وعطشه ويخسر بذلك قدرته على النمو إن المجتمع لا ينمو والإنسان لا ينمو لكن كل شيء يتكاثر ذلك يفسر كلمة (ورق الجنة)[1].

مجتمع التكاثر

فالإنسان في هذا المجتمع مثل ورقة شجرة حقاً. ليس ثمة ورقة تشبه الأخرى وليس ثمة إنسان يشبه الآخر. كل ورقة شجرة لها بصمات خاصة وكل إنسان له بصمات خاصة. كل ورقة تبقى ملتصقة في أصل الشجرة النامية تنال الغذاء وكل إنسان ثابت في أصل المجتمع ينال الغذاء كل ورقة تسقط من الشجرة تحرم من الغذاء. وكل إنسان يسقط من المجتمع يحرم من الكسب.

الطعام هو الثواب والعقاب.

(حالة الجسد) بالراحة واللاراحة هي العقاب الذي يفرضه بقاء الشجرة على الورقة وهي أيضاً العقاب الذي يفرضه بقاء المجتمع

(1) الورقة مقابل البذرة. الورقة تتكاثر والبذرة تنمو. الورقة فرع والبذرة أصل.

على الإنسان. ونهاية المطاف أن الورقة بدون البذرة التي تحمل النمو مادة ميتة فقط. وأن الإنسان بدون فطرته المؤمنة بالنمو جسد فقط[1]. وأن مليون ورقة بدون بذرة لا تصنع شجرة ومليون إنسان بدون فطرة إنسانية لا يصنعون حياة. الورق يصنع مجموعة من الأوراق. والناس يصنعون مجتمعاً من الناس.

الخلود المؤلم

ومعنى الطرد من الجنة واضح للعين:

فالإنسان لم يأكل من الشجرة المحرمة لكي يتكاثر بل لكي يخلد. لقد خطر له أنه يستطيع أن يخلد بتكرار نفسه غريزياً ونسي أن (التكاثر) ليس خلوداً بل كثرة، وكلفه نسيانه هذه الحقيقة حياته كذات متميزة عن سواه دون أن ينقذه من شعوره بالعزلة[2]. إن كوم الورق الذي سقط من الشجرة لم يعد متصلاً، لقد انفصلت كل ورقة عن الأخرى بمجرد سقوطها من الأصل. كذلك الإنسان لم يهرب من وحدته بالتكاثر الغريزي. لقد أصبح كوماً من الناس تربط بينهم الأرض كما تربط بين أوراق الشجرة الساقطة. مجموعة من الحيوانات الاجتماعية التي تعيش بتكرار نفسها غريزياً وسد الثغرات التي لا يمكن سدها غريزياً باستخدام قوة العقل إن العقل هنا هو خادم الغريزة. النمو هو المسخر لخدمة التكرار. الحياة هي المسخرة لخدمة الموت[3]. والإنسان الذي هرب من إحساسه

(1) العودة إلى الفطرة أي العودة إلى الإيمان بالنمو هي «الحياة» في قوله تعالى ﴿**كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم**﴾ سورة البقرة، الآية 28.

(2) هذه الحقيقة يشير إليها القرآن في كلمة «السوأة» فالسوأة التي تبدت لآدم هي اكتشافه للمقدمة القائلة بأن الخلود بالتكاثر لم ينقذ الإنسان من عزلته بل جعلها تبدو عارية أمامه بوضوح أكثر.

(3) عبادة الصنم هي الرمز الواضح لوضع الإنسان الحي في خدمة الموت الممثلة في الصنم المعبود.

بالتميز والعزلة عن بقية الكائنات الحية لم يعد يحس بالعزلة عن الكائنات الحية فقط بل عن أبناء جنسه وأسرته ونفسه. إنه المتشرد الأبدي الذي تمثل به الكنيسة اليهودية أبلغ تمثيل على مشهد من العالم كله وتجره على وجهه إلى أرض الميعاد المزيفة. فأرض الميعاد ليست فلسطين.

أرض الميعاد هي فطرة الإنسان في النمو والخير التي يعود إليها من تشرده المتطاول في عالم غرائزه المغلقة.

الفطرة أرض الميعاد

أرض الميعاد ليست دولة أخرى بل نقطة التقاء الإنسان بربه الذي وثق فيه ووثق في فطرته على النمو. إنه ميعاد العودة إلى الفطرة وكسر دائرة الحياة الغريزية بقوة العقل النامي وإخضاع الموت الممثل في التكرار الحيواني للحياة الممثلة في النمو[1].

أرض الميعاد ليست مزرعة يعيش فوقها حيوان اجتماعي بل فطرة ينبت فيها خليفة اللّه. إن الذي صنعته الكنيسة اليهودية بتفسيراتها الوثنية هي أنها فهمت (خليفة اللّه في الأرض) على أنه المخلوق (الذي يفسد في الأرض ويسفك الدماء) وإن المرء لتعتريه الدهشة من أن يلقى هذا المفهوم قبولاً في عقل الإنسان المتحضر.

(1) الميعاد في الإسلام هو ميعاد لقاء الإنسان بربه أي أنه لقاء روحي وليس قطعة أرض في مكان ما. هذا اللقاء لا بد أن يتم بالضرورة تحت شعار «رب العالمين» إذا كان لقاء إنسانياً كاملاً ويستحيل أن يتم تحت أي شعار جزئي آخر مثل «إله العبرانيين» الذي ترفعه التفسيرات اليهودية الحالية دون أن يفقد شموله ويقع في التناقض وينكمش من (لقاء الإنسان بربه) إلى (لقاء الإنسان اليهودي فقط بربه) مما ينجم عنه جزئية الإنسان وجزئية معبوده معاً. إن سنوات التيه ثم التطهر في مياه الأردن والعبور إلى أرض الميعاد هي رموز لعودة الإنسان التائه إلى الله بعد أن يتطهر من أدران التيه لكي يبني عالمه الذي يفيض بالخير والبهجة أو بكلمة التوراة «يفيض عسلاً ولبناً».

لكن الدهشة في غير محلها.

الذكاء ليس هو العقل

فالإنسان المتحضر لا يفكر بعقله بل بذكائه ذلك أمر كامن في طبيعة التطور البشري نفسه. فالمخلوق الذي خرج من الجنة كان أصلاً هارباً من عقله أو بكلمة أخرى كان مجرد حيوان غير كفء، يولد بكفاءة غريزية أقل كثيراً من بقية الحيوانات.

يولد بدون فراء أو أظافر لحماية نفسه ويبقى أيضاً عاجزاً عن حماية نفسه طوال فترة طفولته المديدة. إنه حيوان ليس له غرائز تحفظ بقاءه فإذا كان لديه فرصة في البقاء فلا بد أن تتمثل في تطوير (خاصيته المتميزة) في التفكير لأداء هذه المهمة. هذا التطوير لا يهدف إلى تحقيق النمو بل إلى حفظ البقاء. إنه مجرد غريزة أخرى ذات طابع مختلف.

ورقة الجنة التي غطى بها الإنسان عورته.

ذكاؤه الذي يسد به نقص غريزته لكي يحفظ بقاءه. إننا لا يجوز أن نخلط بين هذا النوع من النشاط الفكري وبين العقل.

فالعقل وعي الإنسان بذاته أما الذكاء فهو النشاط الفكري الذي يترجم به الإنسان هذا الوعي. إذا كان وعياً للنمو سخره للحياة وإذا كان وعياً للجمود سخره للموت[1]. لهذا السبب يصنع إنسان مزماراً من عود القصب الميت ويصنع الآخر سناناً ورمحاً من عود مماثل. إن النشاط الفكري ليس دليلاً على العقل بل نتيجة النشاط نفسه وحصيلته من مظاهر النمو هي الدليل. ونتائج النشاط الفكري لدى الإنسان المعاصر لا تدل على أنه إنسان عاقل أو

(1) فروم، «قلب الإنسان».

نصف عاقل بل تدل على أنه مخلوق نصف مجنون. إننا نفهم بدون إبداء مظاهر الدهشة لماذا تخدعه الكنيسة اليهودية إلى هذا الحد.

الأرض كلها أرض ميعاد

لكننا لا يجوز أن نقبل (الجنون) باعتباره (كلام الله).

ولا يجوز أن نقبل تفسيرات كنيسة وثنية نصف مجنونة. إن فلسطين ليست أرض الميعاد. الأرض كلها أرض ميعاد وسرقة فلسطين لا تعني شيئاً في الواقع سوى أن (الميعاد) قد تأخر أطول مما يجب. وأن التفسيرات الخاطئة قد فعلت للإنسان ـ ما وعد إبليس أن يفعله به ـ يقوده إلى جهنم بالزينات.

إن فلسطين قطعة أرض مثل سواها.

الإنسان اليهودي يعرف ذلك ويعرف أنها لا تفيض لبناً وعسلاً بل تفيض ضرائب وتدريبات عسكرية شاقة. لأن فلسطين ليست هدية من اللّه بل من الكنيسة. ولأن الكنيسة لا تملك أرض ميعاد بل تملك أسلحة وخططاً. إن الإنسان هو الذي يحتل الأرض ويعطيها للكنيسة. فالعقاب الإلهي لا يخطىء موضعه.

إذا عبد الإنسان صنماً ذبح له أطفاله وإذا عبد كنيسة ذبح أطفاله في احتلال أرض الميعاد من أجلها لكي تتظاهر بأنها حصلت عليها له من الرب. إن قضية فلسطين ليس ضحيتها الأرض بل الإنسان الذي يدفعه رعبه من نفسه إلى أن يتركها في يد مؤسسة غامضة تطلب منه أول ما تطلب أن يموت أو يقتل. إن الإنسان اليهودي ما يزال حتى الآن قرباناً تذبحه الكنيسة على مشهد من العالم. لقد عزلته عن جنسه ثلاثة آلاف سنة وجعلته يحس بوحدته أينما ذهب وجعلته غريباً في الأرض التي يولد عليها

وضيقت في وجهه عالم الله حتى لم يعد يرى منه سوى فلسطين. إنني لا أطيل نقاش هذه القضية إلا لأنني أريد أن ألفت النظر إلى أن قيام المؤسسات الدينية ليس ظاهرة في تاريخ الإنسان الباحث عن اللّه بل ظاهرة في تاريخ الحيوان الاجتماعي الهارب من اللّه. وأن الدافع النفسي وراء قيام الكنيسة هو نفس الدافع وراء عبادة الصنم. إنهما معاً يشتركان في تعويض (الحرية) بالعبودية على مشهد من الإنسان نفسه.

العبد الحر

فالإنسان ليس مخيراً في اختيار (النمو). إنه لا بد أن ينمو أو يخسر طبيعته الإنسانية ذلك معنى كلمة (عبد الله)[1] لكن هذا العبد حر في العصيان. إنه يملك كامل حريته في أن يدير ظهره للحياة بأسرها ويعود إلى رحم أمه.

رحم الأم قد يكون صنماً على الأرض وقد يكون نجماً في الفضاء أو إلهاً وراء النجم. ليس ثمة أهمية للمكان نفسه إنها مجرد فروق في المسافة وعدد الأميال. إذا كان الصنم على الأرض بنى له الإنسان معبداً وإذا كان الصنم وراء الفضاء الأزرق بنى له الإنسان معبداً أيضاً بمثابة نوع من رحم الأم الذي يجد في داخله الأمان. إنه لا يعبد اللّه بل يتقرب إلى صنمه زلفى أي يتخلى له عن حريته وعقله. وهنا يصبح الإنسان عبداً بكل ما تعنيه العبودية من خنوع أعمى. إنه يذبح أطفاله للصنم لكي يحرق جثثهم ويذبحهم للمؤسسة لكي تشتري بجثثهم أرض الميعاد. فالعبد لا يهمه ما

(1) عبد اللّه تستعمل هنا بمثابة اصطلاح ملازم لتعريف الحرية عند فروم الذي يتحدد في قوله «الحرية هي أن لا تكون قادراً على ارتكاب الشر»، أو بكلمة أخرى الإنسان الحر عبد حريته.

يفعله (سيده) بأمواله. إنه يهمه فقط أن ينفذ (أمر) سيده بالإنفاق هذا هو المعنى الكامن من وراء قصة إبراهيم عليه السلام.

إبراهيم أبو الأنبياء.

في المرحلة الأولى يتبين الرسول مدى العبث الكامن في عبادة الصنم الحجري إنه يكتشف طبيعة الموت في الحجر المعبود ويحطم الأحجار ويترك واحداً منها سليماً مشيراً إلى أن الصنم لم يمت لأنه تحطم بل لأنه ميت دائم حتى في صورته السليمة... ثم يبدأ الحوار: ﴿**قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم؟**﴾

﴿**قال: بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون**﴾؟

وإذاك يكتشف عبدة الأوثان أن الأوثان ميتة ﴿**فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون**﴾. لكن اكتشاف الحقيقة لا يحرر العبد. الحرية فقط هي التي تحرره لذا فقد ﴿**نكسوا على رؤوسهم**﴾ أي نظروا إلى الحقيقة بالمقلوب. لقد كانت المعادلة هكذا:

صنم= لا ينطق= ميت= عدو الحياة.

لكن المقلوب على رأسه يراها هكذا:

إبراهيم الذي يعرف أن الصنم لا ينطق= مخلوق حي وواع= عدو الموت ولذا فقد كانت إجابتهم ﴿**لقد علمت ما هؤلاء ينطقون**﴾. وهي إجابة معناها (**أنت حي أنت تعرف أن الصنم ميت. أنت عدو الموت**) وعداوة الموت كفر بالإله الميت[1] وجريمة الكافر أن يذهب إلى النار لذا فقد طرح إبراهيم في النار.

---

(1) عداوة الموت، أي حب الحياة وليس الخوف من الموت، يشار إليه في دراسات علم النفس بمصطلح بيوفيليا، مقابل نيكروفيليا التي تعني عداوة النمو، أي كره الحياة.

معنى البحث عن الله

لكن نار الإله الميت جنة الإله الحي. إنها لا تحرق بل تكون برداً وسلاماً على إبراهيم الذي يرفع رأسه من عالم الصنم الملموس في الأرض وينظر إلى السماء، إن رحم الأم قد يكون صنماً على الأرض لكنه أيضاً قد يكون نجماً في الفضاء أو إلهاً وراء النجم والنبي الكريم الباحث عن ربه (الحي) يمر بهذه المراحل واحدة بعد الأخرى. في المرحلة الأولى يكسر الصنم بيديه.

في المرحلة الثانية يكسره بعقله ﴿**فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين**﴾ إن الصنم ميت لأنك تستطيع أن ترى ذلك بعينيك والكوكب ميت لأنك تستطيع أن ترى ذلك بعقلك. إن الذي يأفل لا ينمو. وكل شيء لا ينمو ليس هو الله حتى إذا كان ذا نفع مباشر للحياة.

لهذا السبب جاء ذكر القمر، إنه يختلف عن الكواكب لأنه يضيء الأرض ﴿**فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين**﴾.

إن القضية ليست قضية نفع أو ضرر بل قضية نمو أو أفول سواء في ذلك الكوكب أو القمر المضيء أو الشمس نفسها مصدر الحياة ﴿**فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت**[1] **قال يا قوم إني بريء مما تشركون**﴾.

والبراءة من الشرك معناها ﴿**إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً**﴾ والاتجاه نحو النمو هو الجملة المعادلة للاتجاه نحو فطرة السموات والأرض. إن النبي العظيم لا يستبدل

(1) يلاحظ أن الأفول يعني أن النور لا يسير نحو التزايد بل نحو التناقص وأن ذلك معناه بالضرورة أنه ليس نور الله حقاً.

الصنم بالقمر أو القمر بالشمس. فهذه كلها أرباب مختلفة في اتجاه التكرار والموت. إنه يستبدل الاتجاه كله مرة واحدة. وكلمة ﴿**وجهت وجهي للفطرة**﴾ تعادل بالضبط (أدرت ظهري لغير الفطرة).

الحياة نمو

هذا هو إبراهيم الذي تزعم المؤسسة الدينية اليهودية أنها تنتمي إليه. نبي أدار ظهره للمؤسسة وللصنم والقمر والشمس والعالم كله[1] ووجد ربه الحي في الحياة والنمو. إبراهيم عليه السلام لم يرفض الصنم لأنه حجر بل لأنه ميت ولم يرفض الموت لأنه غير نافع بل لأنه جمود وتكرار. لقد كانت الحياة تعني بالنسبة له (النمو الكامن في فطرة الحياة وليس الجمود الكامن في فطرة الموت). لذا فإنه عندما يجادله الملك في طبيعة ربه يقول له ﴿**ربي الذي يحيي ويميت**﴾ بمعنى أن فطرة الحياة أن تنمو في اتجاه الحياة وفطرة الموت أن تنمو في اتجاه الموت. لقد كان يشير إلى قانون نهائي غير قابل للتغيير لكن الملك الذي لا يفهم الحياة إلا باعتبارها تكرار ولا يفهم الموت إلا باعتباره إيقافاً للتكرار يقول له ﴿**أنا أحيي وأميت**﴾ وهي جملة معناها في الواقع (أنا أستطيع أن أترك المخلوق الحي يكرر تنفسه ونبضه وسلوكه وأستطيع أيضاً أن أوقف هذا التكرار) الملك لا يفهم أن تغيير التكرار ليس قدرة على الحياة والموت بل قدرة على جسد الكائن الحي نفسه. والنبي يسارع لكي يواجهه بمثال من التكرار الذي لا يستطيع أن يوقفه لأن جسد الكائن ليس في متناول سلطته. ﴿**قال إبراهيم فإن الله يأتي**

(1) دعاء إبراهيم: «**رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبني أن نعبد الأصنام**» سورة إبراهيم، الآية 14. وأبناء إبراهيم هم جميع الأنبياء.

بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب﴾ فهذا شيء يكرر نفسه وأنت لا قدرة لك عليه. إنك لا تحيي ولا تميت بل توقف التكرار أو لا توقفه وحتى هذه القدرة ليست قدرة حقيقية إنك لا تستطيع أن تفعل شيئاً على الإطلاق إلا إذا كان الكائن نفسه في متناول يدك.

فالنمو هو الحياة التي يدعو إليها النبي كل الأنبياء وفي كل العصور.

والتكرار هو الحياة التي يعرفها الملك كل الملوك وفي كل العصور أيضاً. إن المؤسسة الدينية اليهودية التي تزعم أنها تنتمي إلى إبراهيم عليه السلام قد أصبحت (ملكاً) لأنها لم تفهم الفرق الحاسم بين نبي اللّه وبين (من أوتي الملك)[1].

لقد أصبحت الكنيسة سلطة دنيوية عادية. أي سلطة لتنظيم المجتمع القائم على التكرار والجمود. وفسرت أرض الميعاد تفسيراً دنيوياً. أي باعتبارها قطعة أرض يعيش فوقها مجتمع قائم على التكرار والجمود.

النبي لا يؤسس مملكة

الكنيسة أصبحت تنظيماً لظاهرة (التكاثر) التي تقع في مقابل ظاهرة (النمو). إن هذه الحقيقة هي التي تكمن وراء التفسيرات الخاطئة لأعمال الأنبياء.

فالنبي لا يبعثه اللّه لكي يصنع مملكة بل لكي يقيم خلافة[2].

---

(1) بعض المفكرين اليهود الذين أشاروا إلى هذه الحقيقة وأبرزوا تناقض المؤسسة الدينية اليهودية هم اسبينيوزا، فرويد، فروم، ماركس.

(2) خليفة اللّه هو المصطلح الإسلامي المقابل (ابن اللّه)، وبذا يتحدد التقابل بين كلمة (الرب) في القرآن وبين كلمة (الأب) في كتاب العهد القديم أن الرب مصدر النمو لكن الأب (أو الأم في ثقافات أكثر بدائية أو الأسلاف عامة) هو مصدر التكاثر.

إنه لا يأتي لكي يصنع مجتمعاً جامداً قائماً على (الفساد في الأرض وسفك الدماء) بل لكي يقيم خلافة اللّه في الأرض التي يعمرها الإنسان الدائم النمو[1]. إن الرسول محمد عليه السلام لم يقد أهل مكة لإخضاع المدينة بل قاد أهل المدينة لإخضاع مكة وهي مجتمعه الأول وأهله وقبيلته. ولكن ذلك لم يعن لديه أنه يستعدي الغرباء على ذويه بل عنى لديه أنه يعلي الحق على الباطل. لقد فعل الرسول محمد عليه السلام عكس ما فعله جميع أنبياء بني إسرائيل. إنه لم يضع اللّه في خدمة قبيلته بل وضع قبيلته في خدمة اللّه بعد صراع متطاول خاضه ضدها بمساندة من الغرباء.

فخلافة اللّه في الأرض ليست مقامة على صلة النسب بل على الإيمان. هذه هي الخلافة التي أصبح أحد شروطها بعد ذلك أن يكون الخليفة قرشياً.

فالتفسير الخاطىء لأعمال الأنبياء هو البديل الوحيد عن التفسير الصحيح. إنك إذا لم تجد الصواب فلا بد أن تقع في الخطأ. والخطأ الذي وقعت فيه التفسيرات أنها اتجهت دائماً للنظر على السطح. إنها لا ترى سوى الشكل الخارجي المتمثل في تكرار الشعائر والفرائض. ولا تستطيع أن تمثل أيضاً سوى الشكل الخارجي المتمثل في الشعائر والفرائض. وهي بذلك لا تخدم الدين بل تخدم شكله فقط. إن خدمة الدين تبدأ عندما يصبح الدين إسلام الإنسان لفطرة النمو.

---

(1) هذا هو الهدف النهائي للخلق نفسه ﴿**إني جاعل في الأرض خليفة**﴾ وهو يصبح بذلك المعنى الحقيقي للعبادة في قوله تعالى ﴿**وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً**﴾، فالعبادة لمصدر النمو (الرب) والإحسان لمصدر التكاثر (الوالدين).

قصة الفداء

مشكلة التفسيرات لها مثال محدد في فهمنا لقصة فداء إسماعيل. إن القصة تحوي وراءها معنى بالغ العمق والنقاء إنها تتجاوز أبعاد الذبيحة والقربان إلى أبعاد إسلامية جديدة على العالم فالقرآن الذي أشار إلى حادثة الخروج من الجنة باعتبارها اتجاهاً من الإنسان للخروج من طبيعته النامية إلى تكرار شكله بالتكاثر الاجتماعي لم يكن يدين الحياة الاجتماعية باعتبارها خطيئة في ذاتها بل كان يدين (التكرار) إذا كان هدفاً في ذاته. إن القرآن لا يرفض المجتمع بل يرفض أن يصبح التكاثر هو المجتمع هذا المعنى يبسطه القرآن في قصة الفداء.

فالنبي إبراهيم عليه السلام الذي وعى معنى الحياة يرى على الفور أن (التكاثر) هو البديل عن النمو ويصبح من الواضح لديه أن الإنسان ذا الطبيعة النامية لا يجوز له أن يكرر نفسه غريزياً. إنه يرى أن يذبح إسماعيل.

النمو ليس هو عدم التكرار

لكن اسماعيل (ذات أخرى) إنه ليس نسخة من والده كما يبدو الحيوان العادي نسخة من والده. إسماعيل إنسان آخر. والقرآن يشير إلى هذه الحقيقة في قوله ﴿**فانظر ماذا ترى**﴾ إنه يسأله رأيه لأنه يعرف أنه إنسان آخر وأنه قد يملك رأياً مختلفاً.

لكن اسماعيل يقبل قرار الذبح. ليس لأنه لا يملك ذاتاً مختلفة. بل لأنه يملك ذاتاً مختلفة صابرة أي متقبلة لإرادة اللّه في الخير وإذاك يرى إبراهيم عليه السلام هذه الحقيقة رأي العين: إن الإنسان لا يكرر نفسه ولا يلغي حريته في الاختيار ولا يهرب من ذاته في الموت ما دام مؤمناً باللّه. إنه يستطيع أن يوافقك لأنه يلتقي معك

في الإيمان باللّه وليس لأنه لا يملك إرادة منفصلة عن إرادتك. إن التكرار نفسه يمكن أن يحدث ـ دون أن يصبح تكراراً ـ ما دام منطلقاً من إرادة النمو الحقيقية. هنا يختلف المجتمع الإنساني عن المجتمع الحيواني حتى في ظاهرة التكرار.

هنا تتضح أبعاد الإنسان الهائلة الذي لا ينمو ـ لأنه مطبوع على عدم التكرار ـ بل ينمو لأنه يستطيع أن يكرر أو يخالف بقوة إيمانه بالحياة. إن الحرية ليست الفوضى في اتخاذ القرارات بل في اتخاذ كل قرار على ضوء الإيمان بفطرة النمو والخير. إسماعيل لم يقل (مرحباً بالموت) بل قال ﴿**افعل ما تؤمر**﴾ به إيماناً من جانبه بأن فطرة النمو والخير لن تأمر بالموت. حتى عندما وضع والده السكين[1] على رقبته لم يفارقه هذا الإيمان لقد كان واثقاً باللّه.

الذبح ليس خروفاً فقط

﴿**وفداه الله بذبح عظيم**﴾ الذبح ليس القربان فقط. الذبح[2] مخلوق يعيش بغرائزه ويكرر نفسه لهدف التكرار إنه المخلوق الوحيد الذي لا بد أن يموت. فالمبدأ الأصلي من يثق باللّه وبفطرة الخير والنمو يحيا حتى إذا كان بين أنياب الموت ومن يثق بغرائزه

(1) ﴿**فلما أسلما وتله للجبين**﴾ سورة الصافات، الآية 103.

(2) الفداء ليس لإسماعيل بل لظاهرة الحياة المؤمنة بالنمو عامة. إن الذبح لا يصبح حلالاً إذا أهل به لغير اللّه أي لغير ظاهرة النمو. إنه يصبح قتلاً محرماً. ومعنى أن يهل به للّه هو أن يذكر اسمه تعالى في صيغة (بسم اللّه، اللّه أكبر)، أي باسم الحي الذي لا يموت، تعيش الحياة على الحياة، لأن الحياة النامية الممثلة في الإنسان ـ وهي نفخة من روح اللّه ـ أكبر ـ من الحياة الغريزية الممثلة في الحيوان المذبوح. هذا المعنى للفداء يشير إليه القرآن بوضوح في سورة الأنعام ﴿**وقد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا ما رزقهم اللّه افتراء على اللّه قد ضلوا وما كانوا مهتدين**﴾، فتقديم القربان البشري تضحية مقلوبة. إن الحياة النامية هي التي تفتدى وليست هي التي تقدم فدية.

وبفطرة التكرار والجمود يموت حتى إذا كان في وسط الأحياء.

من هذا المبدأ صار (المجتمع الإنساني) مختلفاً عن المجتمع الحيواني الذي يحكمه قانون التكاثر بالغريزة والعبودية للتكرار. من هذا المبدأ لم يعد (التشابه الاجتماعي) أو عدم التشابه هو مقياس الإنسان بل صار مقياسه (الدافع النفسي) للفعل. لقد اتضح الفرق بين مجتمع النمل وبين مجتمع الناس ورأى إبراهيم عليه السلام أن إسماعيل ليس تكراراً له بل ذاتاً مختلفة عنه وأن هذا الاختلاف ليس ناجماً عن التكاثر بل ناجماً عن فطرة النمو. ولذا فإنه يصبح اتفاقاً كاملاً عند نقطة الإيمان بالنمو.. هنا ولد المجتمع الإنساني الذي أشار إليه القرآن في قوله ﴿**فلما بلغ معه السعي**﴾ أي بدأ يمارس معه النشاط الاجتماعي المتمثل في السعي وراء سد حاجات الطعام والشراب والانجاب.

التشابه بالطاعة

هذا المجتمع لا يحكمه الاختلاف لأنه مستحيل بدون التعاون الاجتماعي لكن التعاون فيه ليس (خنوع) للتكرار بل (الطاعة) للنمو. إن الفرق بين الخنوع والطاعة هو الفرق بين نوع التشابه في المجتمع الحيواني وبين نوع التشابه في مجتمع الإنسان[1].

لقد كان إسماعيل الابن البكر[2] لإبراهيم عليه السلام تلك

(1) التشابه الاجتماعي بالخنوع لغريزة قاهرة مثل بوضوح في مجتمع النمل. إنه مجتمع يكرر نفسه أفقياً ويوجد بالتكاثر، ويعتمد على (عدد) أفراده، وليس على نموهم، وهو بذا مجتمع مسدود في وجه التطور الرأسي ولا يسمح لأحد من أفراده بالنمو وراء هذا الشكل المسدود.

(2) هذا هو السبب في رفض القرآن لقصة التوراة القائلة بأن الذبيح هو اسحاق. فالمعروف ـ حتى بالنسبة للتوراة نفسها ـ أن إسماعيل هو الابن البكر، أي أول إنسان من نسل إبراهيم الذي كان عليه أن يكتشف الفروق بين الإنسان القائم على النمو وبين تناسل الحيوان القائم على التكرار.

الحقيقة التي أشار إليها القرآن في بداية القصة بقوله ﴿**رب هب لي من الصالحين فبشرناه بغلام حليم**﴾ كان إسماعيل نقطة الفصل بين مجتمع قائم على التكاثر يرتبط أفراده بقطعة الأرض كما ترتبط قطعان الخرفان، ويخضع كل واحد منهم لدائرة محكمة الإغلاق من السلوك المتكرر لغرض التكرار، وبين مجتمع إنساني يرتبط أفراده بأصل الحياة وطبيعتها النامية، ويطيع كل فرد منهم فطرته في النمو سواء تمثلت هذه الطاعة في تكرار أنماط السلوك أو في الخروج عنها. كان إسماعيل مفترق الطرق بين مجتمع مؤمن وبين مجتمع غير مؤمن، والاقتصار على فهم الحادثة باعتبارها ذبيحة لغرض الذبيحة يشير بوضوح إلى أن المجتمع الإنساني يستطيع أحياناً أن يفقد الجوهر في غمرة تكرار الشكل.

لقد بدأ هذا النقاش لارتياد معنى (خلق الإنسان) في القرآن الكريم وانتهى إلى نتيجة يمكن إجمالها في النقاط التالية:

1 ـ الإنسان ليس مخيراً في الاختيار بين الحياة والموت بل بين النمو وبين الجمود، بين الاستجابة لفطرته أوعدم الاستجابة.

2 ـ فطرة الإنسان أنه ذات متميزة عن غيره. لكن تميزه هو طريقه في أحد اتجاهين إذا غلبته العزلة بضعف إيمانه فقد ذاته في العالم المادي، وإذا غلب عزلته بقوة إيمانه وجد وحدته مع الآخرين في إرادة الخير والنمو.

3 ـ إذا فقد الإنسان ذاته في العالم بنى مجتمعاً قائماً على التكاثر الذي يعني ـ في نهاية المطاف ـ مجتمعاً متميزاً بشكل لحفظ بقائه بتكرار هذا الشكل. وإذا عرف الإنسان ذاته في إرادة النمو والخير بنى مجتمعاً قائماً على

الإيمان الذي يعني في نهاية المطاف مجتمعاً متميزاً بالقوة الروحية لحفظ الحياة بالنمو.

4 ـ القوة العضلية ليست بالضرورة الكفاءة المادية، والقوة الروحية ليست بالضرورة عدم الكفاءة المادية. المقياس هو وظيفة القوة نفسها. إذا كانت محاولة لإخضاع حرية النمو لعبودية الشكل فهي قوة حيوانية. وإذا كانت موجهة لحرية النمو لصالح الخير فهي قوة روحية[1].

5 ـ الحرية الإنسانية ليست صفة يفقدها الإنسان أو لا يفقدها إنها غريزة فيه مثل بقية غرائزه وليس بوسعه أن يتخلص منها إلا إذا كان بوسعه أن يتخلص من جسده. كل ما في الأمر أن الحرية غريزة مختلفة عن جميع الغرائز الأخرى لأنها تتحرك في الاتجاه المعاكس بالضبط. إنها لا توجد بتكرار السلوك بل بتكرار الاختيار لذا فإنها ليست ضماناً في ذاتها. إن الحرية التي لا يقودها الإيمان والثقة بالله مجرد غريزة حيوانية أخرى.

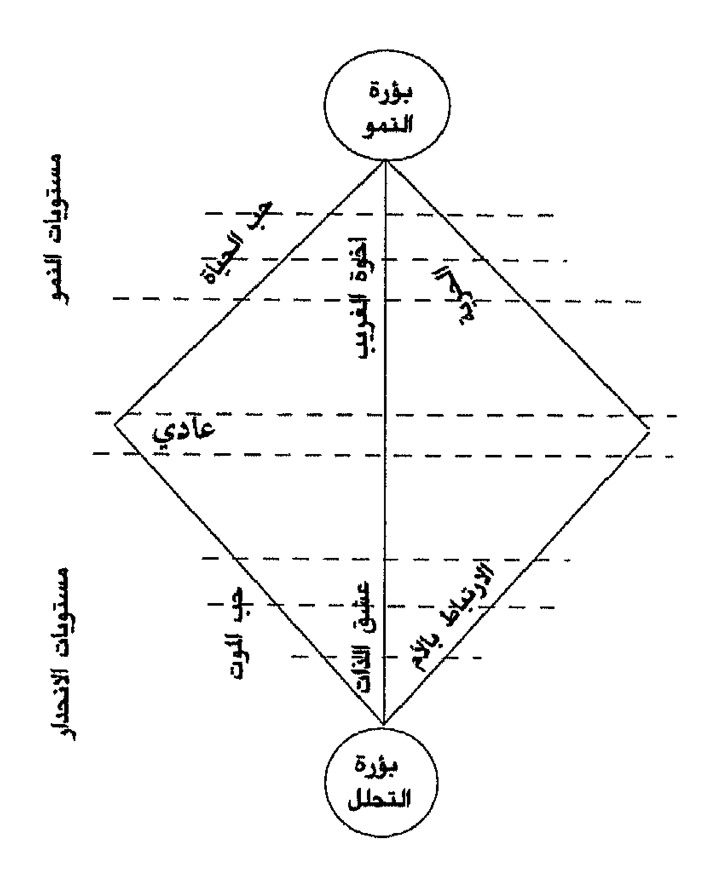
6 ـ الإيمان بالله ليس مقياسه تكرار سلوك معين بل مقياسه (اختيار النمو) في ضوء إرادة الخير بدل اختيار التغيير في ضوء دكتاتورية الشكل. إن الدعوة إلى الإيمان لا تتمثل في تغيير شكل الفرائض بل في تنمية معناها لدى الإنسان العابد.

7 ـ الإنسان العابد ليس عبداً باع حريته بل هو عبد حريته نفسها. إن الحر ليس حراً في التخلي عن حريته.

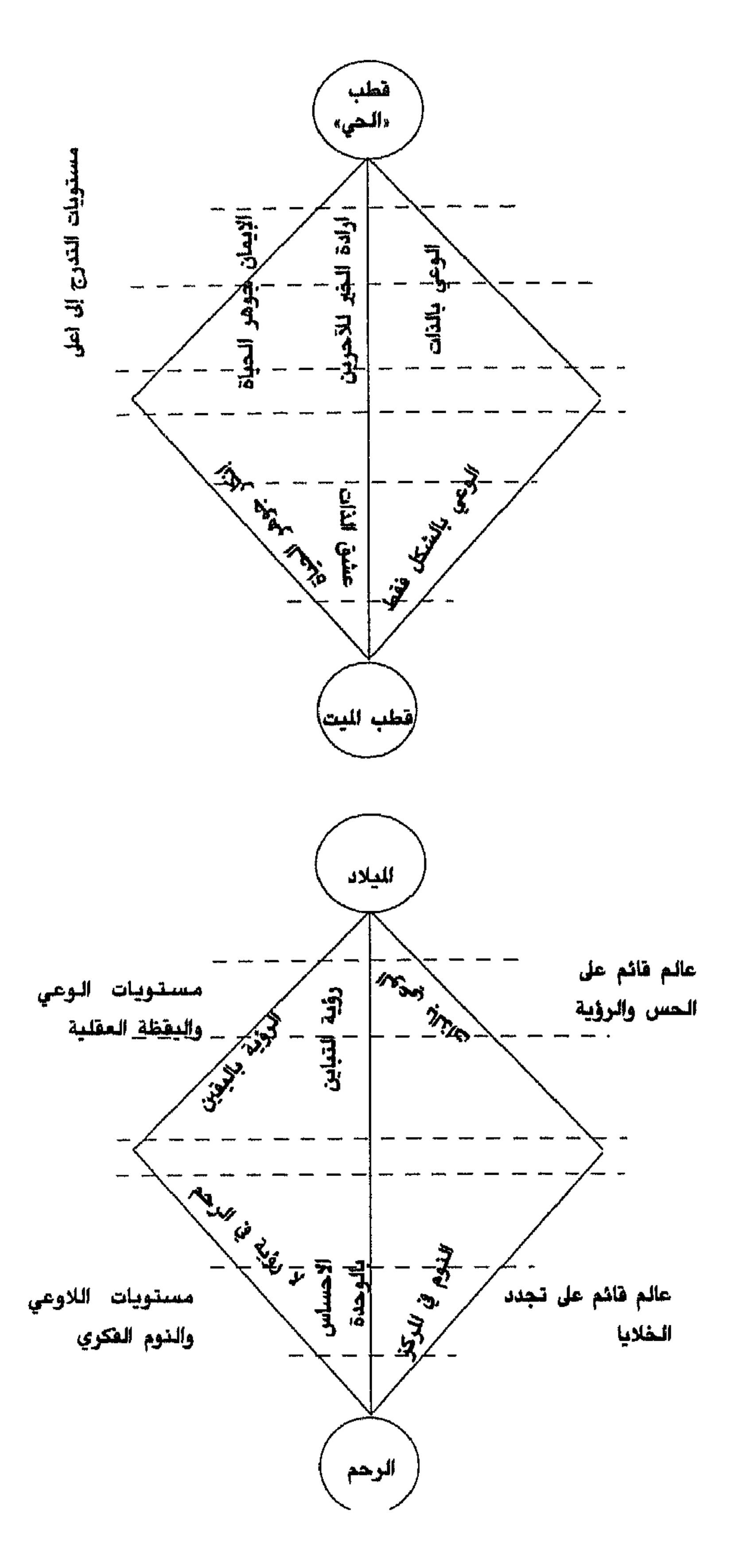
(1) هذا هو الشكل الذي رسمه فروم، «**قلب الإنسان**»، ص 144.

وعلاقة الإنسان بربه لا تتمثل في خنوع العبد لصاحب المزرعة بل في طاعة البناء لصاحب الخطة. هذا هو معنى خليفة اللّه في الأرض.

8 ـ خليفة اللّه في الأرض ليس حيواناً اجتماعياً (يفسد في الأرض ويسفك الدماء) لغرض التكاثر بل إنساناً يحمل عقلاً من شأنه أن يكسر الحلقة المفرغة في عالم الغريزة ويخرج بالحياة من دائرة التكرار لهدف التكرار إلى دائرة مفتوحة قابلة للنمو المطرد في اتجاه الأفضل إنه ليس حيواناً إضافياً مثل بقية الحيوانات التي تعيش الحياة الدنيا[1] في سلسلة التكاثر بل حلاً جذرياً لكسر سلسلة التكاثر ونقلها



(1) الإيمان بالحياة الأخرى هو الشرط الأساسي لكي يوجد الإنسان خارج الحياة الدنيا.



قطب
«الحي»
مستويات التدرج إلى اعلى
الإيمان جوهر الحياة
ارادة الخير للآخرين
الوعي بالذات
الوعي بالشكل فقط
قطب الميت
الميلاد
مستويات الوعي
واليقظة العقلية
رؤية التباين
الرؤية باليقين
عالم قائم على
الحس والرؤية
الاحساس بالوحدة
النوم في المركز
مستويات اللاوعي
والنوم الفكري
عالم قائم على تجدد
الخلايا
الرحم

إلى مستوى النمو إنه المخلوق الذي لا يولد[1] بل ينبت
وهو بذلك يحتاج إلى التربة.

فما هي التربة الصالحة لهذه الطبيعة؟

هل ثمة إجابة حقاً على هذا السؤال الأزلي؟!

خطة وخطة

الإجابة ممكنة لكن الذي ليس ممكناً هو أن يتصور أحد ما أن بوسعه أن يقدم إجابة صحيحة واحدة على سؤالين متناقضين. إن السؤال الأكثر أهمية هنا هو:

هل نبحث عن خطة لإقامة مجتمع يعمره حيوان اجتماعي عاقل؟ أم نبحث عن خطة لخلق إنسان يعيش في مجتمع إنساني؟ فثمة فرق أساسي جداً بين خطة وخطة إنني أشير إلى مثالين بسيطين من حياتنا اليومية. فالمواطن الذي ينوي أن يبني بيتاً والمواطن الذي ينوي أن يزرع حقلاً يمتلكان خطة واحدة تهدف إلى تحقيق غرض واحد لكن كل مواطن على حدة ينطلق من نقطة مختلفة.

الايمان بالجمود

الذي ينوي أن يبني بيتاً يقيم خطته على أساس (إيمانه المطلق) بالحقائق التالية: ـ

(1) الله في القرآن هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، والإنسان، طبقاً لنص القرآن، يحمل نفحة من روح الله وهو أيضاً، أحد، بمعنى أنه متفرد عن كل شخص آخر عداه وصمد، بمعنى أنه لا يتغير بمرور الزمن ويبقى أيضاً هو نفسه، وهو لا يكرر وجود أحد من أسلافه ولا يتكرر في أحد من أبنائه، وليست قدراته مساوية لقدرات أي شخص عداه.

1 ـ الحجر الذي تضعه في مكان ما يبقى دائماً في هذا المكان لأن (الجمود) طبيعة فيه.

2 ـ كلما زاد الحجر ثباتاً كلما كان ذلك أفضل بالنسبة للمبنى. فالاسمنت أفضل من الطين والحديد أفضل منهما معاً.

3 ـ مجموع قيمة الأحجار والأرض ومواد البناء يساوي بالضبط قيمة البيت المرتقب.

4 ـ الحجر هو شكله من الخارج فالحجر المعوج لا يصلح للبناء إنه لا بد من تعديله لكي تصبح جميع الأحجار من قالب واحد.

5 ـ وجود الحجر في مكان ما من البيت هدف في ذاته. إن مهمته هي أن يبقى في مكانه.

الإيمان بالنمو

الذي ينوي أن يزرع حقله يقيم خطته على أساس (إيمانه المطلق) بالحقائق التالية:

1 ـ الحبة التي تضعها في مكانها تنمو لأن (النمو) طبيعة فيها.

2 ـ كلما زادت التربة نعومة كلما كان ذلك أفضل بالنسبة للنمو. فالحقل المحروث أفضل من الأرض البرية.

3 ـ مجموع قيمة الحبوب ونفقات العمل أقل كثيراً من قيمة المحصول المرتقب.

4 ـ الحبة ليست قيمتها المادية بل قدرتها على النمو. إن القالب ليس قيمة الجوهر.

5 ـ وجود الحبة في مكان ما من الحقل ليس هدفاً في ذاته بل وسيلة لتحقيق غاية النمو.

معنى الصلصال

إن الاختلاف بين هذين المنطلقين هو الاختلاف بين جمود البيت وبين نماء الحقل. كلاهما يؤدي هدفاً لكنه يؤديه بإيمان معين وينال نتيجة معينة. الأول ينال بيتاً صلداً ومتماسكاً والثاني ينال حقلاً نامياً.

فليست الخطة هي المهمة بل المنطلقات التي (تؤمن بها الخطة) هي مفترق الطرق. والمشكلة المعقدة فيما يخص الإنسان بالذات إنه ليس حجراً وليس حبة أيضاً بل هما معاً وكل شيء آخر. إن الإنسان يستطيع أن يكون أي شيء هذا ما أثبته تاريخ الحضارة حتى الآن. إنه يستطيع أن يكون عبداً رقيقاً يباع في السوق بيد النخاس ويستطيع أيضاً أن يكون نخاساً.

ليس ثمة قالب معين لا يلبسه الإنسان. إن الأحجار تصلح لبناء البيت والحبة تصلح فقط للنمو لكن الإنسان يصلح لكل شيء.

فكلمة (الصلصال والطين) التي يشير إليها القرآن ليست إشارة إلى جسد الإنسان بل إلى خاصيته في طبيعته، إن الجسد هو المنطقة التي لا تقبل التحوير في الإنسان. أما طبيعة عقله وهي فطرته على النمو، فإنها في الواقع لا يمكن أن تصبح نمواً إلا إذا كانت قابلة للتحوير. إنها تقبل أن تتغير إلى ما لا نهاية حتى تصبح ضد نفسها. لكنها إذاك، أعني عندما تصبح ضد نفسها تبحث فوراً عن اتجاه آخر.

هذا هو السبب في تقدم الحضارة وتغير أشكال المجتمع فالإنسان الذي يستطيع أن يعيش في مجتمع يحكمه ملك مطلق يستطيع أن يتنازل عن حريته للملك ويعيش على مملكته مثل إحدى بهائمه. لكن الفرق بين البهيمة وبين الإنسان أن أحدهما مخلوق

للحياة في دائرة مغلقة والآخر مخلوق للحياة في دائرة مفتوحة. إن جمعهما تحت سلطة واحدة، تناقض واضح في ذاته، والتاريخ يشير بوضوح إلى أن هذا التناقض قد انفجر دائماً وأن انفجاره لم يكن قط لصالح الملك أو لصالح المجتمع بل كان دائماً لصالح الإنسان[1].

معنى الخلق من الماء

فالمعادلة ثابتة دائماً إن الإنسان يقبل التحوير لأن ذلك خاصية في فطرته على النمو لكن التحوير نفسه ـ إذا لم يكن نمواً حقيقياً لا زيف فيه ـ فهو بالتأكيد محكوم عليه بالفشل عاجلاً أو آجلاً[2].

إن إشارة القرآن إلى خلق الحياة من الماء لا تعني فقط أن الكائنات الحية خرجت من الماء بل يعني أيضاً أن الحياة نفسها ليس لها شكل معين بل لها طبيعة معينة[3] والإنسان هو المثل الحقيقي لهذه الظاهرة.

إنه لا يقتصر على الحياة في شكل اجتماعي معين. كل إناء يمكن أن يملأه الماء وكل شيء اجتماعي يمكن أن يعمره الإنسان. لكن الماء له خاصية معينة وهي إحداث النمو والإنسان أيضاً له نفس الخاصية وإذا صار الإناء مانعاً للماء من أداء مهمته في إحداث النمو، يصبح الماء مستنقعاً آسناً، وإذا صار الشكل الاجتماعي مانعاً للإنسان من أداء هذه المهمة يصبح الإنسان مخلوقاً جامداً. إن

---

(1) فروم، **«الإنسان لذاته»**.

(2) هذه الحقيقة وردت في نص قرآني مباشر ﴿**فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله**﴾ سورة الروم، الآية 30.

(3) الماء يمكن أن يوجد في شكل معين ويسقي الزرع ويخدم النمو ويمكن أن يوجد في شكل آخر ويصبح جليداً عازلاً ـ أو بخاراً حارقاً ـ لا توجد فيه الحياة أصلاً. إن الحياة أيضاً لها طبيعة تخدم النمو ولها طبيعة أخرى تخدم الموت.

شكل المجتمع المطلوب لخلق الإنسان هو أن لا يبقى شكلاً اجتماعياً بل اتجاهاً اجتماعياً[1].

(1) هذه أيضاً النتيجة النهائية التي عمل «فروم» في إعداد مقوماتها على مستوى النظرية في كتابه «المجتمع العاقل».

الفصل الثاني:
البحث عن اطار

النقاش السابق أشار بوضوح إلى أن قضية الإنسان ليست في الواقع قضية فرد ما أو جماعة ما بل هي قضية «بيئة إنسانية قابلة لنمو الذات» ـ أو بكلمة أخرى ـ إعداد طبيعة ملائمة لطبيعة الإنسان أو تشويه هذه الطبيعة والاستمرار في تشويهها، حتى تصبح ضد نفسها وتحقق الثورة من داخلها.

وبذا يتحدد مجال البحث عن خطتنا الثقافية. في المقدمة المسطحة التالية: (إننا لا نحتاج إلى خطة ثقافية بل إلى «اتجاه» ثقافي. ومشكلتنا قابلة للحل إذا خرجنا من نطاق البحث عن خريطة للإنسان إلى نطاق البحث عن «اتجاه» للمجتمع يسمح بنمو (الإنسان). إن الحل هو أن نختار اتجاهاً والسؤال هو: هل اخترنا شيئاً حتى الآن؟

قضية المعنى المزدوج

الإجابة مستمدة من ثورة 23 يوليو وثورة الفاتح من سبتمبر تشير بوضوح إلى أننا اخترنا خطة النمو وأن رفع مبادىء الحرية والاشتراكية والوحدة هي التعبير المحدد عن هذا الاختيار. لكن هذه

الإجابة لا تستطيع أن تفسر البطء الملحوظ في التنفيذ لأنها في الواقع ليست إجابة كاملة.

إن البيئة التي ولدت فيها الثورة العربية لم توجد في يوم ميلاد الثورة بل وجدت قبل ذلك بأحقاب متطاولة ومتداخلة واتخذت لنفسها «شكلاً» إنسانياً متميزاً بمعالم خاصة، وصار من شأن هذا الشكل أن يفرض ظله على الثورة بدل أن يتغير في ضوئها. إن هذا الأمر واضح في إحساس القيادة الثورية ببطء عمليات التغيير المطلوب. إن القيادة تصطدم دائماً بالواقع المتمثل في اختلاف المفهوم. فليست النصوص الدينية وحدها معرضة للتفسيرات الخاطئة. إن مبادىء الثورة أيضاً معرضة لهذا المصير.

الحرية في مفهوم الثورة هي النمو الدائم الذي من شأنه أن لا يسمح لسيطرة الاستعمار والصهيونية. والحرية في ذهن المواطن هي فقط «الشكل» الجامد المتمثل في طرد الاستعمار والصهيونية[1].

الاشتراكية في مفهوم الثورة هي النمو الدائم الذي من شأنه أن لا يسمح بالاستغلال في أية صورة من صوره والاشتراكية في ذهن المواطن هي الشكل الجامد المتمثل في توزيع النقود بالتساوي[2].

الوحدة في مفهوم الثورة هي النمو الدائم الذي من شأنه أن لا يسمح بغربة الإنسان عن إخوته وأسرته. والوحدة في ذهن المواطن

(1) إن المواطن الذي يساند قضايا التحرر من الاستعمار هو ـ أحياناً ـ نفس المواطن الذي يعارض قضايا التحرر من التقاليد البالية والخرافات وهو أيضاً نفس المواطن الذي يعارض قضايا التحرر من رذائل اللهو والعبث.

(2) المواطن يساند شعار الاشتراكية في المحصول لكنه لا يرى هذا المفهوم الاشتراكي في الانتاج. وإنه ـ عندما يقود سيارته على الطريق العام ـ يريد أن يمتلك الطريق كله لنفسه.

هي الشكل الجامد المتمثل في إزالة بوابة الحدود بقرار سياسي[1].

الحرية والاشتراكية والوحدة في مفهوم الثورة موقف عقلي. والحرية والاشتراكية والوحدة في ذهن المواطن شكل سياسي.

إن البطء في التغيير الثوري ليس مصدره أننا لم نختر خطتنا بل مصدره أننا اخترنا خطتنا في اتجاهين متناقضين في وقت واحد. اتجاه للنمو على مستوى النظرية واتجاه للجمود ـ المتمثل في طلب النفع المادي فقط ـ على مستوى الممارسة. إن القرارات الثورية تنطلق بكل قدرتها على النمو من مكاتب القيادة والأجهزة التنفيذية العليا المختصة بالتخطيط لكنها تفقد قوتها إلى حد كبير خلال المقاومة التي تلقاها في عدم الاستجابة على مستوى الموظف العادي والمواطن العادي. والبطء ـ أو الركود ـ هو النتيجة الحتمية لوجود هذه المقاومة.

إن القيادة تستطيع أن تختار الشعارات لكن الذي (يضع الشعارات موضع التنفيذ) هو الذي يختار حقاً. إنه وحده يستطيع أن يحدد معنى الثورة ومداها. لذا فإن الإجابة القائلة بأن الأمة العربية قد اختارت الحرية والاشتراكية والوحدة هي في الواقع نصف إجابة. إن القيادة العربية قد أعلنت هذا الاختيار لكن المواطن الذي أشرف على تنفيذه لم يفهمه دائماً بمثابة اختيار بين النمو وبين الجمود بل فهمه غالباً بمثابة فرق بين نظام سياسي وبين نظام سياسي آخر. لقد تمثلت الثورة لديه في شكل (عداء الماضي)

---

(1) ما تزال قضية الوحدة العربية ـ حتى بين بعض السياسيين العرب ـ تحسب بحساب الربح والخسارة. إن أحداً لا يريد أن يرى الحقيقة القائلة بأن انتماءك لأسرتك لا يحدده مدى ما تربحه أو تخسره من هذا الانتماء بل يحدده وجودك ذاته ومعناه. إن الأسرة سمة إنسانية بحتة والسياسي الذي يحسب هذه السمة حساباً مادياً لا يفهم الإنسان باعتباره قيمة خلقية بل باعتباره قيمة مادية.

ونسي أن الثورة لم تعاد الماضي إلا لأنه (شكل جامد) بالذات.

إن البديل عن النمو هو حفظ البقاء.

والمواطن الذي لا يختار أن ينمو بالثورة يختار أن يحافظ على بقائه بسلطة نظام الثورة[1]. إنه ينطلق من منطلق نفعي خالص وليس من المهم أن يكون مادياً بل يكفي النفع المعنوي. فإذا تعرضت المنفعة الشخصية للخطر فإن المواطن يقف مستعداً للتضحية بروح الثورة مقابل نظامها ويقف مستعداً للتضحية بنظام الثورة مقابل روحه أو مصلحته.

إن هذه الظواهر قد صاحبت مسيرة الثورة العربية ـ والثورة في كل مكان ـ وسوف تظل تصاحبها وتقاوم انطلاقها عن وعي أو غير وعي حتى تتمكن القيادة من حل مشكلة الاختيار المزدوج حلاً موثوقاً به. إن الثورة لا تتم باختيار الشعارات بل تتم باختيار الحرية التي يعبر عنها المرء بالشعارات. وقضية الحرية ـ كما بدت طوال النقاش السابق ـ ليست قضية سياسية أو اجتماعية بل قضية بقاء إنساني أو بقاء حيواني.

إن الإحساس بالعزلة هو أول ثمرة للحرية من الجوع والعطش والخوف. والإحساس بالعزلة هو المحرك الأول والأخير لسلوك الإنسان في المجتمع. إنسان يتجه لقهر عزلته بالوعي والنمو والثقة بالله، وإنسان يتجه لدفن عزلته في رحم أمه. ليس ثمة فرق على السطح بين هذين المواطنين. كلاهما يستطيع أن يبدو من الخارج

(1) الثورة لا يحددها الشكل السياسي بل القيم الخلقية الكامنة وراء جميع أنواع النشاط الإنساني. إنها تحدث لكي تحقق «قيماً خلقية» وليس أهدافاً سياسية مجردة من هذه القيم، لكن تاريخ الثورات يشير بوضوح إلى أن الثورات احتواها دائماً هدف سياسي ما وسخرها لخدمته حتى أفرغت الثورة نفسها من محتواها الخلقي في خدمة أغراضها السياسية.

مواطناً صالحاً لا غبار عليه. الفرق كامن دائماً تحت السطح[1].

فأحدهما يحب وطنه لأنه يحب الحياة والآخر يدفن ذاته في تراب وطنه لأنه يخاف من الحياة. أحدهما تحكم سلوكه الثقة والآخر يحكم سلوكه الشك. أحدهما يرفض أن يصبح موضع الشكوك والآخر يخشى أن يصبح موضع الشكوك. أحدهما حي في العالم والآخر نائم في رحم أمه.

النوم الفكري

إن ظاهرة التنويم الفكري لا تختلف في شيء عن ظاهرة التنويم المغناطيسي العادي، فالنتيجة المشتركة أن يتصرف الفرد بإرادة خارجة عنه ويحس في نفس الوقت أنه يتصرف بإرادته. إنها البديل الحيواني للحرية الإنسانية[2].

فالحيوان منوم بغرائزه. إن كل فرد فيه يحس بأنه يتصرف طبقاً لإرادته الخاصة لكننا نعرف أنه لا يملك إرادة سوى غريزة حفظ النوع وأنه يستطيع أن يدمر نفسه ـ كما تفعل أنواع ذكور الأسماك والنمل ـ ما دام ذلك يخدم النوع. الحيوان المنوم بغرائزه لا يحس بأنه (غير حر). والجنين النائم في رحم أمه لا يحس بأنه غير حر. والإنسان النائم في رحم المجتمع لا يحس بأنه غير حر. إن الثلاثة معاً يتصرفون بإرادة نابعة من داخلهم لكنها ليست إرادة مقامة على الاستجابة بل مقامة ـ مثل المرآة بالضبط ـ على مدى الانعكاس.

لماذا الصلاة؟

ما تناله الأم يناله الجنين، ما يفعله المجتمع يفعله الفرد، الفرد لا

---

(1) هذا هو السبب في إجماع الأديان على أن النية وراء الفعل هي حقيقة الفعل نفسه.

(2) فروم، «الهروب من الحرية».

يوجد إلا بمثابة مرآة تعكس الوجه الثقافي للمجتمع ليس باعتباره خيراً أو شراً بل باعتباره الواقع أي البيئة أي رحم الأم[1]. إن هذا النوم العقلي هو البديل التلقائي للحرية الإنسانية المنطلقة من وعي الذات، وهو المرض الذي جاءت الديانات لعلاجه بفريضة الصلاة.

فليس ثمة علاج آخر على أي حال.

سواء بالنسبة لعلم النفس المعاصر أو بالنسبة للأديان، ليس ثمة علاج لحالة النوم الاجتماعي سوى البحث عن الذات واكتشاف صوت الضمير الإنساني وسط زحام الأصوات. إن الأمر يبدو مفاجئاً بالنسبة لمسيرة العصر فقد كان من المؤمل أن يعالج الإنسان كل أمراضه بالعقاقير والقوانين لكن الحياة تملي إرادتها الخاصة. إن الإنسان لا يملك فرصة لاكتشاف ذاته إلا إذا بحث عنها في ركام علاقاته الاجتماعية والغريزية ورآها بمثابة جوهر متفرد بالنمو الخير. إن دعوة الإسلام إلى الصلاة هي دعوة للبحث عن الذات مجردة من مكانها في المجتمع وملكيتها من الأرض أي دعوة لمغادرة رحم الأم بكل صوره وأشكاله واكتشاف الروابط الحقيقية بين جميع الأحياء القادرة على خلق مجتمع حي. لكن الإنسان النائم يستطيع أن يواصل النوم حتى في صلاته، إنه يصلي بشفتيه فيما يواصل عقله تشرده الأبدي بين الأشياء وإذاك تصبح الصلاة وسيلة أخرى للنوم بدل اليقظة ويرفضها الدين باعتبارها صلاة لغير الله ويرفضها العلم باعتبارها ظاهرة تنويم ثقافي.

هذا هو المحك الوحيد والحقيقي الذي تظهر عنده الفروق بين

---

(1) ارتباط الفرد في المجتمع عند هذا الحد ارتباط بالشكل وحده. إنه يرتبط مع الآخرين في «طريقة الحياة» لكنه يختلف عنهم في هدف الحياة نفسها. فالهدف بالنسبة إليه ـ خدمة مصالحه ـ يتعارض مع هدف كل واحد منهم على حدة. إن هذا المجتمع لا بد أن يقوم على مبدأ «الصراع» وليس على مبدأ «التعاون».

إنسان حر وبين إنسان مستعبد. بين مواطن مؤمن بالله والخير والنمو وبين مواطن نائم في أشياء يدعوها الله والخير والنمو. ما يجده المرء في ذاته هو الحق[1]. إذا رأى ذاته متجهة لله رأى حقيقة العالم وإذا رأى ذاته متجهة للدنيا رأى البديل عن حقيقة العالم[2]. لهذا السبب يصف القرآن الصلاة بأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر.

فليس ثمة دافع للدفاع عن الحياة سوى حب الحياة الحقيقي.

إن الصلاة إذا كانت وعياً بذات الله في النمو والخير أصبحت بالضرورة وعياً عقلياً بالحياة ووعياً عقلياً بحتمية الدفاع عنها ضد الفحشاء مطلقاً وضد المنكر مطلقاً.

لكن الصلاة إذا لم تكن وعياً بذات الله في النمو والخير لا تفقد ميزتها في النهي عن الفحشاء والمنكر. بل إن الفحشاء والمنكر يصبحان إذاك نسبيين مثل أي شيء غير إلهي. ليس ثمة مقياس آخر وليس بوسع الفلسفة أن تجد مقياساً آخر إلا إذا انطلقت من مفهومات خاطئة. أما الفكر الذي ينطلق من النظر إلى (حقيقة) العالم كما هي وليس كما تبدو فسوف يرى على الفور أن الإنسان يحقق وجوده على مرحلتين:

في المرحلة الأولى يصبح (حراً) من حاجاته الجسدية وهي حرية

---

(1) المبدأ النهائي للقرآن في شأن التغيير هو ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾.

(2) قضية الحقيقة والبديل عن الحقيقة قضية خلقية حاسمة. إن الرذائل ليست فضائل مقلوبة بل هي «بديل» ـ أي ناتج ـ غياب الفضائل. إن الغرور ينتج عن غياب الكبرياء والذل ينتج عن غياب التواضع، والخضوع ينتج عن غياب الإخلاص.. وهو نفس المبدأ الذي رمزت له المثيولوجيا بحلول الظلام في غياب النور، فكما يحل الظلام تدريجياً، أو يعود النور تدريجياً، يتحرك الإنسان طوال الوقت في اتجاه أحدهما تحركاً مستمراً. انظر فروم «**الإنسان لذاته**».

تهدف إلى حفظ بقائه باعتباره مخلوقاً داخل دائرة الغريزة المقامة على التكرار والحفظ.

في المرحلة الثانية يصبح (حراً) من حاجاته العقلية وهي حرية تهدف إلى حفظ بقائه باعتباره مخلوقاً داخل دائرة العقل المفتوحة المقامة على النمو والعطاء.

في المرحلة الأولى ليس ثمة معنى للفحشاء والمنكر لأن الوجود الحيواني لا يعرف الفضيلة بغير البقاء ولا يعرف الرذيلة بغير الموت.

في المرحلة الثانية يتحدد معنى الفحشاء والمنكر خلال اكتشاف الإنسان لعزلته وسلوكه تجاه هذا الاكتشاف فإذا اتجه عائداً إلى الرحم فقد ذاته وأصبح رقماً في أسرة وتصبح الأسرة رقماً في مجتمع ويصبح المجتمع رقماً في العالم ويتحقق المجتمع الحيواني المقام على التكاثر وإذا اكتشف ذاته اكتشف معها فوراً أن العالم كله ذات واحدة وأن العزلة مستحيلة ويتحقق المجتمع الحي الذي يبدو مثل الماء أصل الحياة، قطراته موجودة لكنها ليست معزولة بل متداخلة.

هذا المنطلق يقودنا إلى تحديد نتيجة واضحة (أن الطريق إلى تحقيق المجتمع الحر يبدأ بكسر عزلة الفرد وكسب ثقته للخروج من مخبئه النفسي)[1].

إنه لا يبدأ بالشك فيه أو بتهديده أو إشعاره بالعقم بل بالثقة فيه ومساندته لحل مشاكله بنفسه وإشعاره بالقيمة التي منحها له الله عندما دعاه بخليفة اللّه في الأرض، ذلك يشبه بالضبط السلوك

(1) هذه الجملة في صياغة أكثر شمولاً لمعنى ظاهرة الحياة النامية تبدو على النحو التالي (إن الطريق إلى تحقيق خاصية النمو في البذرة ـ أو البويضة هو أن تجد التربة ـ أو البيئة ـ المطلوبة لنموها).

المطلوب تجاه الطفل وهو في الواقع تشابه لا بد منه فليس ثمة فرق حقيقي بين الطفل المنوم بغرائزه وبين الكبير المنوم عقلياً، كلاهما يبدو أنه يعيش في الجنة دون أن يكتشف أن الجنة لا يصلها المرء بضعفه واعتماده على الآخرين بل بقوته واعتماده على نفسه.

نحن نثق أن الطفل سينمو لأننا نؤمن بنمو الحياة الغريزية، وهذا الإيمان يلون تصرفاتنا تجاهه بالثقة فيه. إننا لا نحمله بل ندعوه إلى تعلم المشي على قدميه، ندعوه لكي يؤمن بقدراته التي نعرف أنها كامنة فيه ونعطيه الغذاء والمأوى والرعاية بدون مقابل لأننا نؤمن بأن المقابل هو النمو الحتمي في نهاية المطاف.

إن سلوكنا تجاه الطفل متسم بالإيمان لكنه في الواقع ليس إيماناً بالله بل إيماناً بثبات الغرائز وتكررها. لذا فإننا نرفع أيدينا عن مساندة هذا الطفل نفسه بعد أن يبلغ ما ندعوه (بسن العقل). إننا نعجز عن رؤية نموه في هذه المرحلة لأننا لا نرى النمو إلا بشكله الغريزي الأدنى ونعجز بالتالي عن مساندته.

إننا نتخذ منه موقفاً ندعوه (موقف الحياد). هذا الموقف ليس متسماً بالثقة وليس متسماً بالشك بل انتظار صامت لما يفعله الإنسان. إذا فعل شيئاً نافعاً منحناه ثقتنا وإذا فعل شيئاً ضاراً أبدينا تجاهه الشكوك. لكن هذا الموقف في الواقع ليس محايداً حقاً فليس المهم أن لا تشك في الإنسان بل المهم أن تثق فيه حتى ولو عارضت الملائكة هذه الثقة.

فالموقف المحايد الذي نعتقد أننا نتبناه تجاه الإنسان بعدم الحكم عليه، لا هدف له سوى إشعاره بالعزلة. إننا إذا اتخذنا هذا الموقف تجاه الطفل وقرنا معاملته بعدالة طبقاً لما نناله منه فسوف نتركه يموت. فنحن لا نقيم الطفل بإمكانياته الحاضرة بل بالإمكانيات

الكامنة فيه، إننا نصدر حكماً بالثقة فيه دون مبرر على الإطلاق سوى إيماننا بهذه الإمكانيات الكامنة، فهل ثمة معنى آخر لسحب هذه الثقة منه بعد أن يبلغ سن الحلم سوى أننا لم نعد نؤمن بوجود أية إمكانيات كامنة فيه؟

إننا نثق في الغريزة وقد حان الوقت لأن نثق بالعقل ذلك معنى (بسم الله الرحمن الرحيم) التي يبدأ بها المسلم كل عمل يؤديه. فباسم الثقة في الله والثقة في عالمه والثقة في الحياة المفطورة على الرحمة والتراحم يبدأ المسلم عمله وليس من نقطة الصفر التي ندعوها بموقف الحياد. فإذا قادنا النقاش إلى إقرار هذا المنطلق فنحن في الواقع نملك إطاراً عاماً وواضحاً أمام الثورة الكاملة لكي تؤدي مهمتها. الاطار سيبدو جديداً على تاريخ السياسة لأنه ينطلق في اتجاه جديد متميز بالحقائق التالية:

1 - يجمع الدين والدولة عند نقطة واحدة دون أن تصبح الدولة كنيسة ودون أن يصبح الدين مؤسسة سياسية اقتصادية.

2 - يضع المجتمع والفرد في جسد واحد عن طريق اعتبار الاختلاف بين الأفراد اختلافاً من طبيعة النمو وليس في الاتجاه إلى النمو.

3 - يرفض المقياس القائل بأن المجتمع هو مجموع ما يملكه من أدوات الانتاج، ويرفض المقياس القائل بأن الفرد هو مجموع ما يملكه من رأس المال، ويتبنى مقياساً نهائياً يخص ظاهرة الحياة ككل. إن تحية الإسلام هي (السلام عليكم) والسلام هو الشرط الذي يشترطه المسلم لحياة المجتمع والفرد على حد سواء، السلام ليس معناه اللا حرب بل معناه الاحساس بمتعة الحياة.

4 ـ يحدد الاطار متعة الحياة بأنها ليست الاستمتاع بفقدان الذات في اللهو بل المتعة بالتعبير عن الذات بفقدان الذات الحرة تعبيراً يهدف إلى مزيد من الحرية. إن اللهو مميت للحياة لكن التزمت أيضاً مميت لها بنفس القدر. البهجة هي سمة الإنسان الحي وهي التعبير الحقيقي عن اكتشاف الحياة لذاتها باعتبارها ظاهرة وعي في عالم ساكن. والبهجة يعبر عنها الإنسان بالضحك ويعبر عنها أيضاً بالبكاء. إن اللهو والتزمت هما البديلان لدى الإنسان النائم ولذا فهو يلهو ويتزمت في لهوه أو يتزمت ويلهو بتزمته في نفس الوقت لكنه أبداً لا يحس بالبهجة ولا يحس بالحياة.

5 ـ لا ينظر الاطار إلى المرأة باعتبارها طاقة اقتصادية في المجتمع أو باعتبارها حرماً جنسياً بل يراها كما يرى الرجل في ضوء القرآن (خليفة اللّه) ومخلوقاً مسؤولاً من مصيره مسؤولية كاملة.

إن مجتمعنا قد سلب ثقته من المرأة طوال القرون الماضية وحصر أهداف تربيته لها على الصيانة الجنسية حتى أنها لم تعد تحتاج أن تفعل شيئاً سوى أن تصون نفسها بين أربعة جدران، وهي صيانة ـ في نهاية المطاف ـ لا تعني العفة بل تعني العجز عن العفة بدون الجدران.

6 ـ الاطار لا ينظر إلى الطفل باعتباره ملكاً للمجتمع أو باعتباره ملكاً لوالديه بل يراه كما يرى كبار السن إرادة للتعبير عن النمو ويجعل أمر تربيته وتوجيهه وسيلة أمام كبار السن يعبرون بها عن إرادتهم بدورهم في النمو. إن

قضية ضرب الأطفال أو عدم ضربهم ليست قضية حقيقية. المهم هو موقف كبار السن وإصرارهم على تقديس أشكال السلوك التي لا تؤدي قط إلى عرقلة النمو.

7 - الاطار لا ينظر إلى الشيوخ باعتبارهم أدوات انتاج معطلة أو باعتبارهم عبئاً لا مفر منه على أسرهم بل يراهم في ضوء إيمانه بالنمو الدائم للإنسان طاقة حية قادرة على العمل من موقع مختلف ويجعل أمر إيجاد هذا الموقع حلاً بديلاً عن إعالتهم مجاناً. إن الإنسان لا يخسر قدرته على الانتاج إذا تقدمت به السن، إنه يخسر فقط قوته العضلية وإذا أتيحت له فرصة العمل من موقع لا يعتمد على قوته العضلية فإنه يتحرر من عجزه ويواصل نموه اللامتناهي. الحيوان يحسب عمره بالسنين أما الإنسان فإنه يحسبه بالتجربة والنمو.

8 - لا يرى المواطن باعتباره فرداً في مجتمع أو ذاتاً صوفية تائهة في الكون بل يراه بمثابة رفيق في رحلة الحياة يحس بعزلته عن العالم ويرغب في العودة إليه على جسور من الخير والنمو. إنه يقابله بالثقة كما قابله عندما كان طفلاً لكنه لا يعفيه من العقاب إذا كان يستحقه. إن ثقة اللّه في الإنسان لا تعفيه من الحرق إذا اقترب من النار وثقتنا في الإنسان لا تعفيه من المسؤولية إذا اصطدم بذات أخرى بما في ذلك طفله وزوجته. إن القانون في المجتمع هو الحد الفاصل بين ذات وأخرى.

9 - الاطار لا يفهم النشاط الإنساني في الرياضة والفن

باعتباره سلعة تباع للتسلية بل يراه تعبيراً عن قدرات إنسانية خلاقة ويرفض التقييم المادي البحت ـ بما في ذلك الشهرة ـ للنشاط العقلي ويرى كل إنسان بمثابة فنان يعبر عن ذاته بطريقته الخاصة في ملبسه وسكناه بما يدل على حبه للحياة وليس بما يدل على حبه للإثارة.

10 ـ لا يفهم الحرية باعتبارها هدفاً سياسياً بل باعتبارها ضرورة إنسانية. إنه لا يرى قضية فلسطين في ضوء التاريخ بل في ضوء الحق ويرفض بالتالي اعتبارها أرضاً للميعاد ويضع هذا التفسير في مكانه الصحيح من الفكر الوثني. إن الإسلام قد ألغى المؤسسة الدينية اليهودية عندما دعا إلى ملة إبراهيم. فهنا يلتقي المسلم واليهودي والمسيحي أيضاً. وبعد هذا اللقاء يصبح عمل المؤسسة الدينية مجرد محاولة للفرقة. إننا نستطيع أن نختلف في وسائل التعبير عن الإيمان لكننا لا نستطيع أن نختلف في حقيقة الإيمان نفسه. فهو إما طاعة لرب العالمين أو خضوع لصنم. ومنطلق المؤسسة الدينية اليهودية مقام كله على مبدأ الصنم. فتفسير أرض الميعاد بأنها أرض فلسطين تفسير وثني، وسفك الدماء والفساد في الأرض سلوك وثني، واعتبار الإنسان اليهودي ـ وليس الإنسان كله ـ هو فقط خليفة الله في الأرض دليل واضح على تناقض هذه المؤسسة وتفسيراتها المقلوبة.

الأرض كلها أرض ميعاد، وكل إنسان خليفة الله. إن إنشاء دولة لليهود بقوة السلاح في فلسطين أو في أي أرض هو التفسير المقلوب لهاتين الحقيقتين وهو اعتراف

ضمني بصراع الأنواع الذي يعني في نهاية المطاف أن البقاء للأقوى وأن الإنسان مجرد حيوان آخر وأن الكون صراع لغرض الصراع.

11 ـ الاطار لا يرى الاشتراكية باعتبارها نظاماً اقتصادياً بل ضرورة إنسانية لا بد أن تصبح مبدأ الحياة في أي مجتمع إنساني. إنها لا تعني فقط رفض الاقطاع باعتبار ملكية أدوات الانتاج بل باعتباره ملكية أي حق بدون حاجة حقيقية إليه. إن الاقطاعي ليس هو الذي يملك أدوات الانتاج أو لا يملكها بل هو الإنسان الذي ينال لنفسه حقاً ليس في حاجة حقيقية إليه. إن اللهو اقطاع والتزمت اقطاع والظلم اقطاع والافراط في سد أية حاجة جسدية أو عقلية اقطاع. إن الاشتراكية ليست أن نشترك في أدوات الانتاج لأن هذا في الواقع نصف الحقيقة، وبالذات نصفها المادي فقط. أما النصف الآخر فهو أن نشترك في الثقة.

نحن شركاء في أدوات الانتاج لكي نأكل لكننا شركاء في الثقة لكي نعيش. إن الاشتراكية ليست إيجاد كسرة الخبز بل الغرض من إيجاد كسرة الخبز أيضاً. وإذا لم يكن هذا الغرض إبداء الثقة في الإنسان فلا بد من أن يكون رغبة في استخدامه وتسخيره لغاية أخرى. إن الغاية إذاك قد تكون أي شيء لكنها بالضرورة لن تكون مجتمعاً إنسانياً. إن الشيوعية التي أخطأت في فهم هذه الحقيقة لم تخلق جنة للإنسان يرضي فيها كل حاجياته كما تصور كارل ماركس بل خلقت إقطاعية عقائدية تديرها مؤسسة

عقائدية برئاسة مجلس عقائدي لا يختلف عن مجلس الكنيسة إلا كما يختلف وجه الدرهم عن وجهه الآخر. إنه تباين في الشكل وليس في القيمة.

إن كارل ماركس لم يخلق فلسفة جديدة بل قلب فلسفة خاطئة رأساً على عقب. وقلب الخطأ ليس هو الصواب. إن الاشتراكية ليست تغييراً لزاوية النظر للإنسان بل التزاماً بطبيعته.

12 ـ الاطار لا يفسر القومية باعتبارها شكلاً بل باعتبارها شخصية مميزة من مسؤوليتها أن تحافظ على تميزها وتعتز به وتعبر عنه كما هو من مسؤولية الفرد أن يميز تفرده ويعتز به ويعبر عنه. إنه من طبيعة الحياة أن تميز نفسها. ليس ثمة ورقة شجر تشبه الأخرى مائة في المائة. ليس ثمة إنسان يشبه الآخر مائة في المائة. كل شيء له شخصية مميزة كل شيء يتحمل مسؤولية الاعتزاز بهذا التميز. إن كلمة (لا إله إلا اللّه) هي معنى وحدتنا في طاعته رغم تبايننا في كل شيء عداه فالاعتزاز بالنفس هو الشرط الإنساني الوحيد لتحقيق الوحدة الإنسانية في اللّه وإذا لم يتوفر هذا الشرط فإن الوحدة لا تتحقق في اللّه بل في الخنوع لإله غيره أو في التعصب لإله غيره. إن القومية هي البديل الإنساني للنوع عند الحيوان.. وإذا كان النوع وسيلة للصراع بين الأنواع فإن القومية وسيلة للتعاون بين القوميات، إن قوله تعالى ﴿**إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا**﴾ هو أمر باستبدال الصراع بين الأنواع بتعارف إنساني مقام على الاعتزاز

بالذات. لقد وحّد الإسلام أديان العالم تحت شعار (رب العالمين) واستبدل صراع الأنواع بتعارف القوميات تحت شعار (السلام عليكم) والقومية العربية التي حملت لواء الإسلام ما تزال مسؤولة ـ كما كانت دائماً ـ عن تحقيق هذا الهدف العظيم.

إن الاطار من جميع جوانبه واضح ومحدد وإذا كان يبدو مثالياً فإن المثالية فضيلة تقابلها في الجانب الآخر رذيلة عدم الواقعية والخلط بينهما يعادل الخلط بين الحلم والواقع فالفكر غير الواقعي هو بالذات نتاج العقل النائم الذي يوجد في الحاضر ولا يوجد فيه. ويقيم منطقه على عاطفته ومشاعره ويرى نفسه في مركز العالم ويعمل تحت سيطرة تامة من اللاوعي. إنه العقل الذي أساء فهم الموقف الإنساني حتى دفعه إلى صناعة سلاح ذري مهمته الأولى والوحيدة أن يبيد الإنسان فقط. الفكر المثالي في الجانب الآخر يقظة تمت تحت وطأة الحاجة إلى الخلاص من هذا الكابوس. إنه لا يبدأ بالحلم بل يبدأ بالنظر للواقع المسطح. ويقيم منطقه على وعيه بالعالم ويرى أول ما يرى أن أخطر أعداء الحياة ليس هو الموت بل هو الحي النائم.

الفكر المثالي دعوة إلى اليقظة مرفوضة مقدماً من كل عقل نائم، إن النائم يرفض أن يستيقظ بيولوجياً حتى ليقضي حاجته الإنسانية ويزين له عقله أنه واقف في المرحاض ويتركه يدنس فراشه مقابل أن لا يستيقظ. إن عالمنا المعاصر لا يبدو أفضل حالاً من ذلك الفراش المدنس لكن اليقظة حتمية، لقد بدأت علاماتها تتضح في أماكن كثيرة من العالم وبدأ الإنسان يفتح عينيه وينظر حوله. ذلك هو معنى الفن والفلسفة معاً في الغرب والشرق على السواء

إن نقلة الحضارة القادمة سوف تتم في المكان الذي تقع فيه اليقظة على أوسع نطاق ممكن. وليس ثمة مانع واحد من أن تقع اليقظة في أرضنا لكنه أيضاً ليس ثمة ضمان واحد على أنها ستقع فيها دون جهد من جانبنا. إن الطريق المفتوح لا يحملك فوقه بل يدعوك إلى المشي فيه ونحن نستطيع أن نبدأ بالمشي.

الفصل الثالث:
الإطار والدعاة

تقديم:

النقاش السابق انتهى باعتماد النتائج العامة التالية:

1 ـ بناء المجتمع الحر يبدأ بكسر عزلة الفرد وكسب ثقته للخروج من مخبئه النفسي.

2 ـ قضية الثقة ليست موضع اختيار بل هي «ضرورة» أخرى من ضروريات الوجود الإنساني. إن طفولته المتطاولة بالذات قائمة على مبدأ الثقة في نموه.

3 ـ النمو ليس هو الكفاءة المادية بل تحقيق الكفاءة عامة باختيار أنماط النشاط في ضوء الإيمان بالخير. كلمة «الخير» لا تقع مقابل كلمة «الشر» بل مقابل معنى الموت في جميع أشكاله وصوره.

هذه النتائج لا بد من إعادة صياغتها في مقدمات تطبيقية من شأنها أن تساهم في إيجاد تفهم أفضل لمشكلة الفرد والمجتمع من

جهة. ومشكلة التنمية والأخلاق من جهة أخرى. إن المقدمة الأولى هي: إيجاد تعريف حقيقي للمخلوق الذي نتعامل معه تحت لقب (إنسان).

قضية التعريف

فالقول بأن الإنسان (حيوان اجتماعي) قول غامض يعني في الواقع أنه «طاقة» معدة لخدمة رأس المال أو أدوات الانتاج، وأن الجنس ـ كما اعتقد فرويد ـ أو صراع الطبقات ـ كما اعتقد ماركس ـ هو المحرك الوحيد للنشاط الإنساني. إن هذا التعريف ينطلق من قاعدة مؤداها أن المجتمع ضرورة إنسانية، وهي قاعدة صحيحة، لكن غموضه كامن في فهمه لطبيعة الإنسان نفسه.

فالمجتمع ضرورة لحيوانات مختلفة منها النمل والإنسان والتعريف الذي لا يتجه لطبيعة المخلوق نفسه معرض لأن يخلط خلطاً مميتاً بين قرية النمل وبين مجتمع الإنسان. إننا لا بد أن نبدأ دائماً بالتعرف على طبيعة الفرد لكي نحدد طبيعة مجتمعه، وفيما يخص الإنسان بالذات نتعرف على الحقيقتين التاليتين:

1 ـ المجتمع يعني (التكاثر) أو يعني (النمو)، والإنسان لا يتكاثر بل ينمو. إنه حيوان لا يتجدد في نسله.

2 ـ المجتمع وسيلة لحفظ النوع أو وسيلة للتعبير عن ذات الفرد، والإنسان لا يوجد في نوعه بل يوجد في التعبير عن ذاته. إنه لا يعيش بتكرار سلوك سلفه.

والتعريف إذن لا يجوز أن يبدأ بالنظر إلى الإنسان باعتباره (حيواناً اجتماعياً) بل يبدأ بالنظر إلى المجتمع باعتباره بيئة إنسانية للتعبير عن فطرة إنسانية متميزة بالنمو. إن القول بأن الإنسان

(حيوان اجتماعي) قول يمكن أن يعني أي شيء لكن القول بأن المجتمع بيئة إنسانية أو غير إنسانية هو الذي يحدد إطاراً عاماً ومحدداً من جميع جوانبه. إن المقدمة تبدو على النحو التالي:

أ ـ الإنسان حيوان اجتماعي ما دام المجتمع قائماً على فكرة التكاثر وحفظ النوع[1]. إنه مجرد مخلوق آخر مثل النمل أو النحل أو أي حيوان يتكاثر ويحافظ على بقائه بالتناسل.

ب ـ الإنسان ظاهرة اجتماعية لأن المجتمع قائم على فكرة النمو والتعبير عن الذات[2] إنه ليس رقماً مضافاً إلى مجموعة أرقام بل ذاتاً مرتبطة بمجموعة الذوات من حوله ارتباطاً واعياً.

في المقدمة الأولى تتضح مناهج الدعوة في تعبئة الفرد لكي يدمج ذاته في التكاثر، وفي المقدمة الثانية تتضح هذه المناهج في تهيئة الفرد لكي يعبر عن ذاته في النمو. في المقدمة الأولى يعمل الإنسان بمثابة حجر جامد في جدار، وفي المقدمة الثانية يبدو الإنسان بمثابة بذرة معدة للنمو، في المقدمة الأولى ينظر الداعية إلى أفراد الجماعة كما ينظر البنّاء إلى أحجاره، وفي المقدمة الثانية يعمل الداعية في تنقية البيئة الاجتماعية كما يعمل المزارع في تنقية حقله. إن الفرق بين المبدأين هنا هو نفس الفرق بين (التجميع) وبين (التنمية). بين الصنعة وبين الخلق. بين الآلة التي تدعى (بالحيوان الاجتماعي) وبين المخلوق الحي الذي يدعى باسم (إنسان).

---

(1) هذا منطلق الرأسمالية والماركسية اللينينية معاً.

(2) هذا منطلق القرآن ومدارس علم النفس التحليلي.

والنتيجة:

إن التعريف الصحيح لا ينطلق من وصف الفرد بل من وصف البيئة التي تدعى باسم (المجتمع). ويرى أن أول شروط هذا المنطلق أن يصبح المجتمع بيئة إنسانية، وليس أن يصبح الإنسان حيواناً اجتماعياً. وإن أول شروط البيئة الإنسانية الإيمان بالنمو وليس التكاثر باعتبار طبيعة الإنسان نفسه. إن المجتمع المؤمن ـ الذي يرفض بالذات أن يكون الإنسان فيه حيواناً اجتماعياً ـ هو مجتمع نسعى لبنائه في أرضنا هنا، وفي العالم بأسره.

إنه المجتمع الوحيد الذي يحتاج حقاً إلى جهد الدعاة وجهد النظرية والدعوة. كل ما عدا هذا المجتمع المؤمن لا يحتاج إلى جهد من أحد بل يحتاج إلى دوافع نفعية. إن الرأسمالية لا تحتاج إلى الدعوة بل إلى الإعلان. والشيوعية لا تحتاج إلى الدعوة بل إلى الحكم والشرطة. أما الذي يحتاج إلى الدعوة حقاً، ولا يستطيع أن يقوم بدونها، فهو المجتمع القائم ـ مثل العالم نفسه ـ على مبدأ الذات مقابل مبدأ الفرد[1]. إن المجتمع المؤمن معناه دعوة إلى الإيمان باللّه.

أول حقيقة في منهج الدعوة إلى اللّه أنها لا تبدأ من الفراغ بل تبدأ من محاربة ظاهرة الصنم في جميع أشكاله وصوره. إن الصنم الحجري مجرد تجسيد للإنسان الميت في جموده.

وأول حقيقة في منهج دعوتنا إذن هي أن ننظر إلى مجتمعنا وننقيه من ظاهرة الصنم في فكره وعمله. أي في ثقافته وسلوكه معاً.

---

(1) مبدأ الذات مقابل مبدأ الفرد، هو الفرق الحقيقي والحاسم بين المنطلق الروحي وبين المنطلق المادي.

إنني سأعرض هنا منهجاً عاماً لإطار هذه الدعوة، وهو منهج يتحدد في الميادين الثلاثة التالية:

ميدان الوعظ، وميدان التعليم، وميدان القانون

(1) بالنسبة للوعظ

الإيمان لا يعين داعية بل يخلق داعية. إن وظيفة الواعظ المحترف وظيفة حرجة لأن هذا المواطن بالذات لا بد أن ينطلق من نقطة الإيمان بما يقوله وليس الدعوة إلى ما يقوله، إنه لا بد أن يكون مؤمناً يعبر عن إيمانه بالوعظ، وليس واعظاً يؤدي وظيفته بالدعوة إلى الإيمان. وإنشاء قسم خاص لهذه الوظيفة عمل زاد دقة المهمة.

إن النتيجة تمثلت في قلة رواد المساجد. وغربة المسجد عن الحياة اليومية، وغربة الواعظ نفسه عن المجتمع، تلك الظاهرة التي لا بد أن تعني خلال الخمسين عاماً القادمة انفصام الدين في هيئة عن الحياة في المجتمع. إن الحل ضروري لكنه ليس في متناول اليد، وحساسية الموضوع نفسه تجعله أكثر صعوبة. إن الشعور الديني أكثر المناطق حساسية في ثقافة أي مجتمع، والنتيجة الأولى لهذه الحساسية أن ينعزل الفكر الديني عن موقع عمله بين الناس ويصبح (حراماً وحلالاً) فقط. أي يصبح وصفاً لنتائج السلوك وليس تحريكاً للسلوك نفسه.

إن المسجد هو الواعظ، وليس هو جدرانه الأربعة.

ونظرنا يتجه إلى هذا المواطن بالذات عندما نتحدث عن الدعوة والمسجد، إننا لا بد أن نعيد النظر في مناهج تعليمه وتدريبه على وسائل النقاش المعاصرة وفهمه لمعنى عمله. ونقترح الاجراءات التالية:

1 ـ توزيع مناهج كلية الشريعة على كلية الحقوق وكلية التربية. واعتماد ثقافة رجل القانون والمدرس باعتبارها ثقافة إسلامية واعية مؤهلة للوعظ.

إن الوعظ في ذاته ليس حرفة بل تعبيراً عن عقيدة، والعقيدة ليست فكرة قائمة في الفراغ بل فكرة مترجمة إلى شريعة ملموسة، ورجل القانون والمدرس، أي القضاء والتربية في نهاية المطاف هما الشريعة الحقيقية في أي مجتمع.

2 ـ إحياء التقليد الإسلامي القديم بتولي المسؤولين الإداريين مهمة نقاش أعمالهم مع المواطنين. إن ولاة الخلفاء الراشدين كانوا يعملون في القضاء والمسجد معاً. وإحياء هذا التقليد بين الموظفين الكبار عندنا أمر يسهل لقاء المواطن بالمسؤول ونقاش القضايا الهامة في وقتها.

3 ـ الاستعانة بالمسجد في محو الأمية واعتماده بمثابة فصل دراسي يلتقي فيه العالم في أي علم مع الطالب في أي فرع من فروع العلم. إن وجود الكتاب والمعلم في المسجد هو الدعوة الواضحة إلى المعرفة.

4 ـ الشروع في إنشاء مجلس للإفتاء بدل وظيفة المفتي التي لا يمكن أن يشغلها إلا موظف واحد. إن مجلس الافتاء لا بد أن يضم خبراء متمرسين بفهم النص الديني لكنه لا بد أن يضم أيضاً خبراء اجتماعيين وعلماء من معظم فروع المعرفة. ويتكفل هذا المجلس بإيجاد إجابة الدين على كل سؤال قد تعرضه الحياة العامة إجابة قائمة على الفهم العلمي. إن مهمة الحفاظ على الدين في شكله ومعناه

ستوضع في أيد أمينة إذا تركت لمجلس افتاء حقيقي يحسن الفهم ويحسن الجدل.

5 - توجيه نص الموعظة لكي تصبح نقاشاً للعادات السائدة في المجتمع باعتبارها عادات تحتاج إلى التنقية في ضوء الإسلام. إن الصراخ في المأتم عادة جاهلية، والمغالاة في المهر عادة متبقية من تجارة الرقيق، وحجاب وجه المرأة وشكل عباءتها عادة متبقية من عصر قرطاجنة. وتقديس قبور الصوفيين والإقامة حولها طلباً للبركة عادة لا تليق بالمسلم والمسلمة لكن الخلاص من هذه العادات بالذات أمر لا يتم بالقانون، إنه يحتاج إلى كلمة الإنسان المتدين ويحتاج إلى نقاشه الواعي بأبعاد الدين والحياة.

وفلسفة الاطار العام:

إن العودة إلى جوهر الدين لا يمكن أن تتم بدون الضغط على نقاش الشكل، والضغط على الشكل لا بد أن يتجه إلى وظيفة الواعظ والمفتي ويعرضهما للنقاش عرضاً يهدف في النهاية إلى التحرر من طبيعة هذه الوظائف واستبدالها بقيم دينية جوهرية. إن شكل الدين لا يجوز أن يكون ديناً في ذاته إلا إذا كان يريد أن يحتل مكان الجوهر. وهو ما حدث في المسيحية واليهودية معاً حتى أصبح شكل الكنيسة في هاتين الديانتين حاجزاً يحول دون توحدهما في إله واحد. إن مهمة التوحيد هي التي جاء القرآن لإنجازها بالدعوة إلى «رب العالمين».

(2) بالنسبة للتعليم

ثمة نوعان من التعليم، تعليم يهدف إلى (المعرفة بالشيء). وتعليم يهدف إلى (المعرفة بمعلومات عن الشيء). القسم الأول لا

علاقة له بالمدرسة أو المعلم لأنه يقوم كله على «التجربة النفسية» وليس على الحادثة في الخارج. فالمرء لا يعرف الخوف بالشرح بل بتجربة الخوف. إن هذا القسم كله يقع في نطاق المعرفة الروحية التي لا تنقلها الكلمات أو وسائل المخاطبة بل ينقلها السلوك والقدوة، فالمعرفة باللّه ليست هي معرفة معلومات عن الله، لذا فجمع المعلومات عن تاريخ الدين لا يقود إلى الإيمان بل يقود ـ كما أشار القرآن نفسه ـ إلى رجل يحمل أسفاراً مكتوبة فوق كتفه ولا يستفيد منها إلا بقدر ما يستفيد حيوان آخر عاجز أصلاً عن القراءة.

طبيعة هذا النوع من التعليم أنه لا يتم إلا بإيجاد القدوة.

الشرط الأساسي لكي يعرف الإنسان الإيمان، أن يؤمن به مجتمعه، ولكي يعرف الكفر، أن يكفر به مجتمعه. الشرط الأساسي لكي يعرف الإنسان معنى الثقة والحب والاخاء والفضيلة أن يجد قدوة في مجتمعه لهذه الفضائل بالذات.

إن إيجاد القدوة هو الخطوة الحقيقية لتعليم الفضيلة.

والقسم الثاني من التعليم الخاص بجمع المعلومات عن المعرفة هو الميدان الذي يستطيع أن يعطينا القدوة المطلوبة إذا حققنا له التوجيه المطلوب. إن هذا القسم ما يزال حتى الآن غير مدرك لغايته.

فالتعليم في المدرسة ـ وهو كله يدخل في باب جمع المعلومات عن أجزاء العالم جمعاً يهدف إلى خدمة البقاء ـ أصبح في الواقع تدريباً وتأهيلاً للفرد لكي يكسب عيشه في المجتمع. إنه لا يهدف إلى كسب الفضيلة بل إلى كسب الطعام، ونتيجة هذا التعليم ليست إنساناً عارفاً بل إنساناً عالماً. إن شهادته النهائية شهادة بالكفاءة المادية لشخص ما على أداء حرفة ما، وليست شهادة

بكفاءة هذا الشخص على أداء حرفته الأصلية كإنسان. إن المجتمع المؤمن الذي نطمح لبنائه هنا، وفي العالم بأسره، لا يقوم على مجموعة من الخبراء بل على مجموعة من الناس، وتغيير مناهج التعليم الحالية هو الخطوة الأولى في هذا الطريق.

غاية المناهج الحالية إيجاد الخبير.

غاية المناهج المطلوبة إيجاد القدوة.

الاعتراض المتوقع هو أن الإنسان يحتاج إلى الخبز لكي يعيش. والرد الوحيد أنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان. إن الكفاءة الروحية ليست هي خلق صوفي درويش لا تهمه كسرة الخبز. بل خلق إنسان يهمه كل شيء بما في ذلك كسرة الخبز.

إن مناهج التعليم الحالية قد أعطت ثمارها في الغرب متمثلاً في إنسان ذي كفاءة مادية عالية. وإذا لم يكن هذا هدفنا فإن علينا أن نرى هذه الحقيقة في عينها ونختار مناهجنا بأنفسنا.

لضمان سلامة الاختيار نقترح:

1 ـ اعتماد جزء من ميزانية التعليم العامة للإنفاق على المناهج التجريبية في معاهد خاصة. إن التجربة هي الشاهد على نتيجة العمل شهادة مباشرة وملموسة. والانفاق على التجربة هو أفضل من الاستثمار غير الناجح.

2 ـ إحدى النتائج التي ثبت نجاحها بالتجربة في ميدان التربية تمثلت في اكتشاف قدرة المرأة على التعليم والتعامل مع الطلاب خاصة في المراحل الأولى قدرة تفوق إمكانيات الرجل. إن الاستفادة من هذه الحقيقة يعني أن نعمل على تشجيع المرأة لكي تتولى ميدان التعليم بأسره في المدى البعيد. إننا إذا نجحنا في وضع التعليم في مراحله الأولى

تحت إشراف المرأة فسوف ننجح في حل قضية انفصام البيت عن المدرسة ونخلق للمرأة عملاً هو في الواقع نفس عملها في البيت. وإذا كان المجتمع هو بيت الإنسان الذي يولد وينمو فيه فإن المرأة هي مربية هذا البيت.

3 ـ المدرس وسيلة للتعليم لكنه ليس الوسيلة الوحيدة أو حتى الوسيلة الأفضل من سواها. إن المسرح والسينما والنشاط الاجتماعي وسائل فعالة جداً في نقل المعلومات وهي تستحق الانفاق عليها كما يستحقه المدرس لكن بنود ميزانية التعليم لا تضع في حسابها هذه الحقيقة. إن إعادة توزيع هذه البنود أمر لا بد منه للشروع في نهضة خاصة بوسائل التعليم.

4 ـ مرحلة التعليم الإجباري هي مرحلة «تثقيف» وليست مرحلة تأهيل. ذلك يعني أن مجتمعنا لا ينفق على أفراده لكي يكسبوا عيشهم بل لكي يكسبوا سلوكاً فاضلاً ومسؤولاً أولاً ثم يكسبون عيشهم. إننا عندما نختار مناهجنا التعليمية مطالبون بمراعاة هذا الحد بالذات.

5 ـ التعليم ليس معناه تعليم القراءة فقط بل تعليم النشاطات الإنسانية جميعاً. والموسيقى بالذات تحتاج منا إلى لفتة خاصة. إن مناهجنا مفتقرة إلى استيعاب أهمية هذا الفن إلى جانب إصرارها على تنفيذ حصص القراءة والإملاء والحساب تنفيذاً خالياً من روح الخلق. إن الفن ـ بما في ذلك فن القراءة والإملاء والحساب ـ هو منهج المعرفة السليمة وليس المنهج أن يتعلم المرء هذه المواد الثلاث لذاتها.

وفلسفة الاطار العام:

إن فهم التعليم باعتبار أنه تأهيل للفرد لكي يؤدي حرفة يكسب طعامه بأجرها. هو فهم يحسب الإنسان بقيمة ما يكسبه من الطعام ويستعمله في المجتمع باعتباره (جامع طعام) تلك الفكرة الخاطئة التي ما تزال متبقية في ثقافتنا منذ بداية تكوين المجتمع الإنساني. إن التعليم الصحيح لا بد أن يبدأ بمراعاة طبيعة الإنسان عامة وطبيعة الذكر والأنثى خاصة. وتتحدد بدايته في مناهج واضحة للطفل الذكر والطفلة الأنثى منذ أن يتضح الفرق بينهما.

إن إيجاد هذا المنهج أمر متوفر على مستوى النظرية والخبرة. لكن تطبيقه على أرض الواقع يحتاج إلى جهد الدولة وقانونها.

(3) بالنسبة للقانون

في المجتمع المستعمر يخضع المواطن للقانون، في المجتمع الحر يطيع المواطن القانون. الفرق بين الطاعة وبين الخنوع لا يظهر في سلوك المواطن بل في سلوك رجل القانون. إن الشرطي هو الذي يعرف ما إذا كان المواطن الواقف أمامه يطيع أوامره بوعي أم أنه يخضع للتنفيذ تحت وطأة الخوف. طريقة رجل القانون وموقفه ونوع المشكلة وأبعادها هي التي تحدد الفرق بين طاعة العدالة وبين الخوف من القوة. إن غاية المجتمع الإسلامي هي أن يعمل كل فرد فيه داخل إطار قوانين الشريعة. وغاية قوانين الشريعة أن يعمل كل فرد بوحي من فطرته المؤمنة، فالفطرة واختيار الخير اختياراً حراً من قضية العقاب أو الثواب هي الأهداف النهائية للإيمان. إننا نبحث عن الطاعة وليس عن الخضوع لقوة القانون. والدعوة إلى ترسيـ هذه الحقيقة في مجتمعنا تبدأ من المشرع نفسه. إن الطاعة نشا، داخلي في الإنسان. والمشرع الذي يحاول أن يطل على هـ

النشاط بتفسير السلوك مشرع يختار طريقاً لم يختره الله له. إن عليه أن يعتمد على الحدس وحده، والحدس ليس دائماً أمراً عادلاً.

إن مجتمعنا الحالي بحكم ظروفه الثقافية يميل إلى تفسير السلوك تفسيراً شكلياً ويميل إلى إصدار أحكام خلقية حاسمة بناء على الشكل وحده. إن كل مواطن متهم حتى تثبت براءته في جميع الثقافات غير المرنة، وثقافتنا هنا تبرز هذه الحقيقة في أحكام مجتمعنا. كل مواطن ليس كريماً إلا إذا أنفق نقوده على مشهد من الناس. إذاك يعتبره المجتمع مواطناً كريماً. كل امرأة ليست وقورة إلا إذا أظهرت وقارها بالحجاب أو العبوس. كل مواطن ليس ثورياً إلا إذا أعلن عن ثوريته ببعض الكلمات وأشكال السلوك الظاهري. إن الشرطي الذي ينفذ القانون مواطن جاء من هذا المجتمع ويحكمه نفس المبدأ. إننا هنا، في هذه النقطة بالذات. نحتاج حقاً إلى التوعية.

فيما يخص الشرطي نحتاج إلى برنامج التوعية التالي:

1 ـ دورات تثقيفية تجمع كل قطاعات الشرطة ويحاضر فيها رجال القانون ورجال الفكر لتبصير الشرطي بطبيعة المجتمع الذي نسعى إلى بنائه في المدى البعيد.

2 ـ بقاء شرطة الآداب على اتصال دائم بمثل هذه الدورات التثقيفية. فالرجل الذي نعهد إليه بحماية أخلاقنا ليس شرطياً عادياً. إنه لا بد أن يعرف أبعاد مهنته العظيمة لكي لا يعطينا في نهاية المطاف تصوراً قاصراً لمعنى الأخلاق.

3 ـ إيجاد رقابة مسؤولة عن أعمال الشرطة من خارج أجهزتها. إن الرقابة الإدارية الحالية يمكن توسيع اختصاصها لكي تؤدي هذه المهمة وتكفل لنا أن

الشرطي يستفيد حقاً من اللقاءات الفكرية التي تعقد معه. إن ظلم الشرطي للمواطن لا يقع من القانون بل يقع من ثقافة الشرطي نفسه. والرقابة هنا جزء من التوعية والإرشاد.

فيما يخص المشرع لا بد أن نلفت النظر هنا إلى أن مجتمعنا الذي ننوي بناءه وندعو إليه، ليس نظاماً جديداً علينا فقط، بل هو نظام جديد على العالم المعاصر بأسره. إن المجتمع الذي يرفع شعار رب العالمين ويبدأ نشاطاته باسم اللّه الرحمن خالق الحياة على فطرة الرحمة والثقة. ويشترط السلام بمثابة أول شرط في اتصال أي فرد بفرد آخر.. هذا المجتمع لم تهدف لبنائه القوانين العصرية ذات الاهداف المادية البحتة. إن الفلسفة ظلت تحلم بمثل هذا الاجتماع الإنساني لكن المجتمعات نفسها ظلت تقام على قوانين مستمدة من فلسفات أخرى. ولذا فإننا سنواجه حاجة ماسة إلى نظرية خاصة في القانون.

نظرية تعيد النظر في تعريفات القوانين لفكرة الحرية وفكرة الثواب والعقاب معاً. وتنقي القانون من أهداف الرأسمالية التي تمثلت دائماً في تحريك السلوك والحكم عليه بموجب تقييمات مادية بحتة.

لقد قدم القرآن منذ القرن السابع الميلادي نظرية في إصلاح المذنب. لم يكن ثمة قانون في العالم يعرف شيئاً عن هذه الفكرة الراقية. كانت القوانين قائمة على مبدأ المعاملة بالمثل وهو مبدأ أقرّه القرآن باعتباره (الحد الأدنى) لردع الجريمة لكنه قدم بجانبه فكرته الراقية عن ردع المذنب ردعاً إنسانياً عن طريق إصلاحه وإرشاده. إن القانون يستطيع أن يحدد إصلاح المذنب بالصورة التي يراها.

وهذه الحرية المتاحة أمام المشرع تعطيه ما يحتاجه من المجال لكي يقرر الحل الأفضل. إن الاصلاح ـ سواء بالعقاب أو بالإرشاد ـ هو الهدف. وليس العقاب فقط هو الهدف وإذا أتيح لهذه الفكرة الراقية أن تجد سنداً في عالمنا المعاصر فإنها لا بد أن تجد هذا السند في مجتمع المؤمنين بالقرآن.

إن هذا الكتاب الكريم قد اكتشف منذ أربعة عشر قرناً أن ردع الجريمة ـ أية جريمة ـ يقع في مكان ما بين العفو الكلي وبين المعاملة بالمثل. وأعلن بوضوح ﴿**وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله**﴾، وترك هذا المجال الواسع كله للمشرع لكي يختار الصواب، ويقرر العفو والإصلاح أو يقرر إقامة الحد. إن فلسفة القانون لم تكتشف هذه الحقيقة إلا في وقت متأخر. فيما بدأ المشرع الإسلامي يبتعد عنها حتى حصر نفسه في نهاية المطاف بين (إقامة الحد أو عدم إقامة الحد). أي الأذى أو عدم الأذى ولكن ليس الإصلاح بوسائل الوسط.

والاصلاح بالذات هو الأجر.

إن نظرية القرآن ليست نظرية علمية فحسب بل إنها إيضاً نظرية تربوية تهدف إلى تعليم المسلم كيف ينتصر على الشر بقوة الخير والاصلاح وإعادة الشاذين في مجتمعه إلى منطقة النجاة إعادة قائمة على الارشاد والقدوة. وتحديد ملامح هذه النظرية أمر نحتاج إليه أكثر من سواه.

الفصل الرابع:
تطبيق

كيف نبدأ؟

سؤال هام لا بد من الإجابة عليه قبل إنهاء هذا النقاش لكنني أريد أن ألفت النظر إلى أن الإجابة قد تبدو أحياناً شاذة. ليس لأنها خاطئة بل لأن الخطأ هو الذي أصبح عادياً. إن المقترحات التالية ليست مقدمة هنا في ضوء الشاذ والعادي بل في ضوء البحث الهادف إلى إيجاد بدايات ممكنة وملتزمة بنتائج النقاش السابق، إنني أقترح:

أ ـ إنشاء مجلس أعلى خاص بشؤون الأسرة ليس شؤون الرجل وحده أو الطفل والمرأة وحدهما بل الأسرة جميعاً بما في ذلك كبار السن. ومهمة هذا المجلس ليست هي مهمة وزارة الشباب والشؤون الاجتماعية بل عمل مختلف يهدف إلى تحقيق الاشراف على شؤون البيت باعتباره نواة للمجتمع. إنها الجهة التي تربط وتقيم وتستفيد من عمل جميع الوزارات الأخرى وتغطي النشاطات التالية:

1 ـ تشرف على المسجد باعتباره مركزاً للخدمة الاجتماعية.

2 ـ تشرف على إنشاء مكاتب للزواج وتقديم النصح والمساعدة والتحقق من ظروف الزوجين.

3 ـ تعمل على تطوير أشكال الحياة في مجتمعنا في شكل البيت والزي والأثاث والعادات والتقاليد.

4 ـ تساعد على إيقاف موجة انفصام المرأة عن بيتها وأطفالها في موقع العمل بأن تعطي المرأة عملاً في بيتها يهدف إلى تطوير الصناعة اليدوية. إن الصناعة اليدوية تعبير عن روح الشعب ومقدراته الفنية وليست منافساً للصناعة الآلية. إن الحصير الليبي لا يجوز أن ينقرض بل يجب تطويره لكي يدخل بيوتنا مرة أخرى وكذلك العباءة والأغطية الملونة وسلال السعف وقناديل الأطفال وآلاتنا الموسيقية. إن الحضارة لا يمثلها الغرب أو الشرق بل يمثلها الإنسان القادر على تذوق الجمال أينما يراه.

5 ـ تعمل على إيجاد روح البهجة في حياتنا التي ما تزال تتصف باللهو أو التزمت فقط. إن الزعم بأن الإنسان يعيش لكي يأكل خطأ لا يعادله إلا الزعم بأنه يعيش لكي ينتج طعامه فقط. الإنسان يعيش لكي يحس بمتعة الحياة. هذه هي الحقيقة التي تكاد أن تضيع في غمرة ضيقنا باللهو والتزمت على حد سواء. إن النادي الليلي بشكله المعروف في العالم ليس مكاناً للبهجة بل مكاناً لافتعال البهجة مقابل ثمن باهظ جداً لكننا نستطيع أن نطوره ونجعله مظهراً من مظاهر حياتنا الاجتماعية. إن تطوير النادي الليلي وفتح مزيد من المسارح ودور العرض وإنشاء

منتزهات عامة وحدائق للحيوانات ليس تبذيراً لنقودنا بل استثماراً مربحاً لها.

ب ـ الاتجاه إلى إعانة المواطن على استعادة الثقة بنفسه يعني أيضاً الاتجاه إلى إعانته على استعادة الثقة بتاريخه. إننا نحتاج إلى دراسة آثارنا وتصنيفها في متاحف وتسجيل مظاهر حياتنا الماضية والحاضرة وحفظ هذه السجلات في متاحف أخرى وتشجيع المواطن على السياحة في أرضه. إن هذا الانفاق ليس في الواقع انفاقاً حقيقياً بل استثماراً مربحاً على المدى الطويل.

جـ ـ الشجرة، المخلوق الحي الذي لا يكلف شيئاً سوى قطرات من الماء وبذرة، لا بد أن تدخل كل بيت في بلدنا وتقام عند كل بيت في بلدنا بالتوعية وبقوة القانون. إننا لا يجوز أن نسمح لأحد ببناء بيت أو شق طريق أو فتح ميدان لا يملك من شكل الحياة سوى لون الحجر الميت. إن المدن الكبيرة التي تبدو بمثابة كتل من الحديد والإسمنت والمباني الشاهقة ليست نتيجة حضارية حية بل نتيجة حضارية ميتة بما تفيض به من العذاب والزحام. السيارة الخاصة والمدن المزدحمة مرضان حضاريان لا بد من الشفاء منهما عن طريق تحسين وسائل المواصلات العامة وكسر المركزية بتعدد المراكز. إن إنسان العصر القادم لن يعيش في مدينة كبيرة بل في مدينة مريحة.

د ـ إنشاء المؤسسات العامة ليس بديلاً عن المؤسسات الخاصة بل تكملة لها. إن العمل الذي لا يستطيع الافراد أداءه بالتعاون المباشر يقومون بأدائه عن طريق المؤسسة العامة،

ومن المرغوب فيه أن لا تصبح سهولة هذا الحل مبرراً للجوء إليه دائماً. إن الاتحاد الاشتراكي بقواعده الشعبية يستطيع أن يساهم في تجنب هذا المزلق عن طريق تشجيع سكان الوحدات الأساسية على إنشاء الجمعيات التعاونية والمؤسسات الخاصة لحل مشاكلهم في المنطقة وللمساعدة على حل مشاكل المناطق الأخرى.

هـ ـ استهلاك اللحم ظاهرة انفاق محض تتم على حساب اقتصادنا. إننا نملك أطول شواطىء بحرية مزدحمة بكل أنواع السمك وبوسعنا أن نعتمد عليها في غذائنا اعتماداً كلياً بغض النظر عن نتائج تجربتنا الزراعية. إن الاتحاد الاشتراكي يستطيع أن يجرب قدرته على التأثير والعمل بالتشجيع على إنشاء شركات مساهمة للصيد البحري وإدخال السمك بمثابة طبق شعبي إلى كل بيت.

و ـ حملة التوعية التي نحتاج إليها تتجاوز قدرة وسائل الإعلام المطبوعة والمسموعة. إن الجريدة لا يقرأها إلا من يستطيع أن يقرأ والإذاعة لا يسمعها إلا من يريد أن ينصت والمواطن الذي نتجه لمخاطبته هو بالذات المواطن النائم الذي لا يعرف القراءة ولا يعرف أيضاً أنه يحتاج إلى الانصات. إن التشويق ليس إضافة للفكر، بل ضرورة لها لكي تصل إلى هدفها، والصحافة المرئية هي الوسيلة الإعلامية الأكثر تشويقاً من سواها لأنها تضم عمل الصحيفة والإذاعة المسموعة معاً وتضيف إليهما بعد الرؤية للصورة، انها سيطرة كاملة على جميع حواس المشاهد وكلمة الصحافة المرئية لا تعني المرئية فقط بل

تعني أيضاً السينما التي لا بد من رعاية نموها والاشراف المباشر عليه. الانفاق هنا ليس إنفاقاً حقيقياً بل استثماراً مربحاً على المدى الطويل ووسيلة للاتصال بالعالم الخارجي اتصالاً لا يعرقله اختلاف اللغة. إن التعريف بأنفسنا وحضارتنا وأهدافنا سيكون طريقه الأكثر وضحاً هو الصورة المرئية وليس الكلمة.

وبعد،،،

فنحن قبل ذلك كله- لا نستطيع أن ننطلق لبناء مجتمع قادر على النمو من خطة جامدة. إن الأمر لا يتم بالنية الحسنة أو الاخلاص أو الرغبة في الخير لأن ذلك كله مجرد مدلولات لفظية قابلة للتفسير الصحيح والخاطىء على حد سواء. الضمان ليس نص القانون بل موقع القانون نفسه من قوله تعالى ﴿**إن اللّه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾. كلما كان القانون وسيلة الفرد لتغيير نفسه كلما كان صالحاً، وكلما اتجه القانون لتغيير الفرد من الخارج كلما تعرض للفشل.

إننا لم نخلق الإنسان وليس بوسعنا أن نفعل شيئاً تجاهه سوى أن نراه كما خلقه اللّه. إذا أخطأنا هنا لن يدفع الإنسان ثمن هذا الخطأ بل يدفعه مجتمعنا وأطفالنا ويجد الإنسان مكانه في أرض أخرى، وإذا اهتدينا إلى الصواب هنا فإن الأرض بأسرها تنتظر رسالتنا.



نقاش

الصادق النيهوم

الايمان لا يعين داعية بل يخلق داعية .

إن وظيفة الواعظ المحترف وظيفة محرجة لأن هذا المواطن بالذات لا بد أن ينطلق من نقطة الإيمان بما يقوله ، وليس الدعوة إلى ما يقوله !

انه لا بد أن يكون مؤمناً يعبر عن ايمانه بالوعظ وليس واعظاً يؤدي وظيفته بالدعوة إلى الإيمان !

إن الشعور الديني هو أكثر المناطق حساسية في ثقافة أي مجتمع . والنتيجة الأولى لهذه الحساسية أن ينعزل الفكر الديني عن موقع عمله بين الناس ويصبح «حراماً وحلالاً» فقط أي يصبح وصفاً لنتائج السلوك وليس تحريك للسلوك نفسه .



التوزيع الحصري خارج الجماهيرية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

ص . ب . 113/5752 ر . ب . 2070 1103 ـ بيروت ـ لبنان

Email: arabdiffusion@hotmail.com